الحكيم

قصص توفيق الحكيم

١

تجليد
صالح الدقو
بيروت - المزرعة

JAFET LIB.
1 AUG 1974
JAFET LIB.
14 SEP 1975

LIBRARY

كتب توفيق الحكيم

التى نشرت فى اللغة العربية

محمد

الطبعة الأولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)
الطبعة الثانية :
(مطبعة المعارف عام ١٩٣٦)

شهرزاد

الطبعة الأولى :
(مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤)
الطبعة الثانية :
(مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

أهل الكهف

الطبعة الأولى :
(مطبعة مصر عام ١٩٣٣)
الطبعة الثانية :
(مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣)
الطبعة الثالثة :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠)
الطبعة الرابعة :
(مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)
الطبعة الخامسة :
(المطبعة النموذجية عام ١٩٤٨)

عودة الروح
فى جزئين

الطبعة الأولى :
(مطبعة الرغائب عام ١٩٣٤)
الطبعة الثانية :
(مطبعة المعارف عام ١٩٤٦)

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة العربية

تحت شمس الفكر

الطبعة الاولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)
الطبعة الثالثة : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)

تاريخ حياة معدة

الطبعة الاولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
الطبعة الثانية :
(مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)

عهد الشيطان

الطبعة الاولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
الطبعة الثانية :
(مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)

براكسا او مشكلة الحكم

(مطبعة التوكل عام ١٩٣٩)

راقصة المعبد

الطبعة الاولى :
(مطبعة التوكل عام ١٩٣٩)
الطبعة الثانية :
(مطبعة التوكل عام ١٩٤٠

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة العربية

نشيد الانشاد (مطبعة مصر عام ١٩٤٠)

حمار الحكيم
الطبعة الاولى
(مطبعة التوكل عام ١٩٤٠)
الطبعة الثانية :
(مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)

سلطان الظلام
الطبعة الاولى :
(مطبعة التوكل عام ١٩٤١)
الطبعة الثانية .
مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)

من البرج العاجى (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)

تحت المصباح الأخضر (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)

بجماليون
الطبعة الاولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة العربية

اهل الفن (مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)

مسرحيات توفيق الحكيم — المجلد الاول ويشمل قصص : سر المنتحرة ، نهر الجنون ، رصاصة فى القلب ، جنسنا اللطيف .
(مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)

القصر المسحور — بالاشتراك مع الدكتور طه حسين بك
(مطبعة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦)

مسرحيات توفيق الحكيم — المجلد الثانى : ويشمل قصص : الخروج من الجنة أو الملهمة . أمام شباك التذاكر . الزمار . حياة تحطمت .
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)

يوميات نائب فى الأرياف — الطبعة الاولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)
الطبعة الثانية لحساب وزارة المعارف العمومية
(مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر عام ١٩٣٧)

عصفور من الشرق — الطبعة الاولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
الطبعة الثانية :
(مطبعة التوكل عام ١٩٤١)
الطبعة الثالثة :
(مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة العربية

سليمان الحكيم — الطبعة الاولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)
الطبعة الثانية : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)

زهرة العمر — الطبعة الاولى :
(مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)
الطبعة الثانية :
(مطبعة التوكل عام ١٩٤٤

رصاصة فى القلب . (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

الرباط المقدس : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٤)

حمارى قال لى . (مطبعة المعارف عام ١٩٤٥)

شجرة الحكم . (مطبعة التوكل عام ١٩٤٥

الملك أوديب : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٨)

قصص توفيق الحكيم : المجموعة الأولى (مطبعة دار سعد مصر ١٩٣٩)
» » » : المجموعة الثانية » » » » »

كتب توفيق الحكيم

التى نشرت فى لغة أجنبية

شهرزاد

ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليسكونت عضو الاكاديمية الفرنسية .
وترجم الى الانجليزية ونشرت مختارات منه فى دار النشر (بيلوت) بلندن ، ثم فى دار النشر (كراون) بنيويورك . فى عام ١٩٤٥

عودة الروح

ترجم ونشر بالروسية فى ليننجراد عام ١٩٣٥
وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧
وبالانجليزية ونشرت مختارات منه فى لندن عام ١٩٤٢

يوميات نائب فى الأرياف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ بمقدمة للدكتور حافظ عفيفى باشا . (طبعة أولى)
وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية)
وترجم ونشر باللغة العبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الانجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ . وترجم الى الاسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨

أهل الكهف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت مدير دار الاثار العربية
ثم ترجم إلى الايطالية بروما عام ١٩٤٠

عصفور من الشرق

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

ليلة الزفاف

إنطلقت آخر « زغاريد » ذلك القران الميمون فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل . وزف « العروسان » إلى حجرتهما بعد أن رشا بالملح من أعين الحساد . وأغلق عليهما الباب وصارا وحدهما أخيراً . . . وقد اجتازا الأعتاب نحو تلك اللحظة التى لم تخلق مثل كل اللحظات . . . تلك اللحظة التى تشع كاللؤلؤة البهيجة فى تاج الزمان . . زمان كل فرد على هذه الأرض . . من الملوك الى الصعاليك . تلك اللحظة التى بذل فيها ما بذل . ومن أجلها احتشد المعارف والأصدقاء ، واحتفل الأهل والأقرباء ، ونصبت الموائد ، وقرعت الكؤوس ، ولعب الفرح والأنس بالرؤوس ، وحمى الرقص وارتفع الغناء ، وسبح الحاضرون

وعاموا فى أوقات من الهناء . . . جاءت تلك اللحظة . . . قمة السهرة ، وقبة الخملة ، ومحراب الليلة . . . لحظة الخلوة بين العروسين . ويا لها من لحظة ! . . كل زوج ولا شك يذكر حيرته وهو يبحث فى رأسه عن أول كلمة يخاطب بها عروسه وقد صارا على انفراد . أيبدأ بكلمة جدية أم كلمة فكهة .. أم كلمة عاطفية ؟ . وكل زوجة تذكر ولا ريب احساسها وهى تنتظر الكلمة الأولى من فم « عريسها » !

أما عروس الليلة فلم يبد عليها أنها تنتظر شيئاً . فما كاد باب حجرة العرس يغلق ، حتى تركت « عريسها » واتجهت إلى منضدة الزينة ، وجلست ووضعت رأسها الجميل فى كفيها . ورأى « العريس » منها ذلك ، فأقبل عليها يقول :

ـــ أمتعبة أنت يا عزيزتى ؟ صخب العرس أزعجك فيما أرى ! . .

فلم تجب . ولم ير العريس وجهها الذى تخفيه بيديها . ولكنه لم يلبث أن رأى قطرة دمع تفر من بين أصابعها ،

وتسقط على ثوب عرسها الأبيض . فقال بصوت يتهدج حناناً :

ـ أتبكين يا سونه ؟ !

فلم يسمع منها غير نشيج خافت . فتألم لها . إنه يعلم السبب. إن سنية وحيدة أمها . وقد فقدت أباها منذ بضعة أعوام . فالافتراق عن هذه الأم العزيزة التي كانت لها كل شيء ليس بالأمر اليسير . ولعل هذه الفكرة هي التي كانت تخيم عليها طول الحفلة لقد كانت مطرقة واجمة ذاهلة ، قليلة الكلام نادرة الابتسام فحدب عليها ، وألصق خده برأسها ، وقال لها :

ـ لا تبكي يا عزيزتي سونة . سأكون لك أما وأبا وزوجا وأخا . . ولن أجعلك تشعرين أبداً أنك فقدت شيئاً أو فارقت أحداً . .

فأبعدت رأسها عن خده ، وأرادت أن تتكلم ، ولكن الدموع غلبتها . . فبادر هو يقول لها :

ـ لا تتكلمي ! إني أعرف ما تريدين أن تقولي . اطلقي دموعك ولا تكتميها . هذا أمر طبيعي . لست أخشى إلا على

عينيك الجميلتين .. ولكن البكاء فى مثل هذه الحال يجلو النفس ، وعما قليل تشعرين بالراحة ، ويشرق وجهك ، كأنه شمس تسطع بعد مطر خفيف لطيف ..

فاهتزت كأن فى جوفها معركة .. ثم تشجعت وقالت والدمع فى عينيها :

ـ أريد أن أصارحك بشىء ... هل تسمح لى ؟ . .

ـ بالطبع ياسونتى .. بالطبع . صارحينى بكل ما فى نفسك ألسنا الآن زوجين ؟ لا ينبغى أن يخفى أحدنا عن شريكه شيئا .

ـ نعم من واجبى أن أقول لك .. وأرجو أن لا تتألم أو تغضب : إنى أحب شخصا آخر ...

لفظتها بسرعة وقوة ، ثم استخرطت فى البكاء . ودوت هذه العبارة فى أذن العريس كأنها قذيفة ، وأذهلته المفاجأة ، فلم يحس ألماً ولا غضباً .. بل لم يشعر بنفسه ولا بما حوله .. ولا بالوقت الذى مر قبل أن يتماسك ويثوب إلى رشده ، ويعى مدلول ما سمع . . وينظر فيما ينبغى أن يصنع . . . وكان

رجلا رزيناً عاقلا فى نحو السادسة والثلاثين ، علمته تبعات منصبه المحترم أن يزن الأمور . فسرعان ما ضبط نفسه ، وقال بهدوء ممزوج بالمرارة والعتب المهذب :

— ألا ترين أن هذا التصريح جاء متأخراً بعض الوقت ؟ هل كان لديك مانع من الافضاء به إلى فى أيام الخطوبة أو قبل إبرام العقد على الأقل .

— كان يجب أن يتم هذا القران إرضاء لأمى المسكينة . كنت أراها أتعس مخلوقات الأرض كلما حاولت اقناعها بفسخ خطوبتنا . لقد كان أملها الوحيد ، وحلمها الدائم أن ترانى زوجة رجل مثلك ! . . ولقد خانتنى شجاعتى فلم أجرؤ على صدمها فى آمالها . . وهى مسنة ضعيفة مريضة . إن الله يعلم كم جاهدت كى أكتم عاطفتى وأخنق حبى ، وكم أردت آخر الأمر أن أفهم نفسى أن الماضى قد انتهى بالزواج . . وقد خيل الى أن قلبى قد استجاب لنداء العقل ، لكنى الليلة ، وقد تم الأمر ، وأمسى كل شىء حقيقة . . سمعت صرخات قلبى تهزنى هزاً وتكاد تهدم

كياني ، فأيقنت انى لن أستطيع المضى فى خداع نفسى . ولا يليق بى المضى فى خداعك . .

كانت تقول ذلك وهى تشهق ببكائها وتنشج . . وأطرق العريس وفكر فيما افضت به ملياً . . ثم قال :

ـــ تصرفك سليم ، ولا غبار عليه ، ثق انى من جانبى على أتم استعداد لمعاونتك فيما يتجه اليه عزمك . الحق معك . . لا يجب ان تخدعى نفسك . إستمعى الى صوت قلبك . وما دام حبك صادقاً . . فليس لأحد عليك سبيل . إنى أضع حريتك بين يديك منذ الآن ، وأضع نفسى فى خدمتك ، فلنتدبر الأمر معاً . . كيف نخرج من هذا الموقف أولا . . هبى أنى طلقتك الليلة ما الذى سيحصل ؟ ستكون فضيحة أرضاها ، لك لا ومصدراً للاقاويل والاشاعات حولك لن ينضب . . ثم هى صدمة قاسية لوالدتك . وأنت التى أشفقت عليها من صدمة أخف وأهون ! . . إذن ماذا نصنع ؟ فكرى معى قليلا . . .

ـــ أصبت . . . ان طلاق الليلة فضيحة .

٩

— فلنبحث عن حل غير هذا ... ابحثى جيداً ...

— ها انذى ابحث ..

وجلس كلٌ منهما يفكر ، وقد جعل رأسه فى كفيه .. وأخيراً نهض العريس صائحاً :

— وجدت حلاً ، ربما كان فيه الخير ، ولكنه يتطلب منك بعض الصبر ، ومنى بعض القدرة على التمثيل .. ذلك أن اطلقك بعد شهر او شهرين ، وفى خلال هذه الفترة أتظاهر أمام الناس ، وعلى الأخص أمام والدتك ، انى فقد الخلق شرس الطباع وانى اسىء معاملتك ... بهذا نعدها اعدادا رفيقاً لتحمل يمين الطلاق ... بل قد ينفد صبرها هى فتحنث قبل انقضاء المدة على طلب الانفصال ، فاذا تم ذلك رأت بعدئذ حلمها ومحط أملها فى ذلك الذى اختاره قلبك ... ما رأيك فى هذا الحل ؟

— مدهش ! ..

لفظتها وهى تريد أن تكفكف دمعها و « تنف » فلم تجد غير طرف ثوبها .. فاسرع العريس قائلا قبل أن تتمخط به :

ـ انتظري .. انتظري ... خذي منديلي ، ولاتوسخي ثوبَ عرسكِ ، حافظي عليه للقران الآخر !..

فتناولت منديله وهي تقول :

ـ إنك رجلٌ نبيلٌ .. انى آسفةٌ . ما ذنبك انتَ حتى اعكرَ عليك صفوَ هذه الليلة ؟ وماذا جنيتَ انتَ حتى تفجعَ هكذا فى عروسكَ ؟... ولعلكَ علقتَ آمالاعلى هذاالزواج .

فاطرقَ لحظة .. ثم قال كالمخاطبِ نفسه :

ـ لا تذكريني ... أقصدُ ... لا تعلقي على هـذا الأمر أهميةً .

ـ إنى متألمةٌ لكَ . . .

ـ لا تألمي لي . . . انني بخيرٍ . . انكِ على كل حال لستِ مسئولةً عما وقع لي . حظي هكذا ... حقيقةً لقد وضعت فى هذا الزواج أملي . لأنى كنتُ دائما رجلاً شحيحا بعواطفه ضنينا بفؤاده ، استغرقتني حياة العمل ، فلم اعرف من حياة الليو إلا القليل ، ولم اعطِ امرأة من نفسي شيئا نفيسا . . .

ادخرتُ كل ما فى قلبى من حبٍ للزوجة التى من نصيبى . كنتُ أتخيلها فى أوقات فراغى وهى الى جانبى ، وأتخيلُ ما اناجيها به من حدبٍ وعطفٍ وحبٍ وحنانٍ ، كدستُه كدنانير البخيل على مر الأعوام من أجلها . . ولكنَ القدرَ أرادَ أن يصيبنى فيما كنزتُ كما يصيبُ أحيانا البخلاءَ فيما يكنزون . . لأنه يحلو له السخريةَ ممن يركزونَ همهمْ فى هدفٍ . فيتربصُ بهم حتى يقتربوا منه ، فيعبثُ به بطرفِ إصبعه ، فاذا جهودهم هباء . .

— كل ذلك بسببى . . أنا مجرمةٌ . .

— لا مطلقاً . . لا شأن لكِ بالأمر . . . إن مثلى مثل ذاكَ الذى ظلَ يجمع المالَ ويدخرهُ ليشترى به عينا ، فلما تمَ له ذلكَ واشترى العينَ وجدها محجوزاً عليها أو مرهونةً لآخر رهناً عقارياً ممتازاً لا فكاكَ منه . . فما ذنبُ العينِ فى هذه الحال ؟ الذنبُ ذنبُ الادخارَ . . والبخلَ . . وليتنى جعلتُ شعارى : « اتقِ ما فى الجيبِ يأتك ما فى الغيب » ! . .

— ان كلامكَ يحز فى نفسى كسكين . . .

لستُ أدرى ماذا فى امكانى أن أصنعَ لكَ .. من يدرى ؟ ربما عوضك القدرُ عنى خيرا . . . وجاءك الغيبُ بزوجة أحلامك . . . انى لم أكنْ بكَ جديرة . . .

ــ هذا لطفٌ منكِ ياسو . . . ياسنيه . . . سنيه هانم .. اعذرينى . لم أعدْ أدرى كيفَ أناديك . . .

ــ عجبا . . نادنى كما كنتُ تنادينىَ منذ لحظة . . .

ــ أمامَ والدتكَ بالطبع . . . أما ونحن وحدنا . . . فلا حقَ لى . . .

ــ لماذا ؟

ــ لم يعد لى حق تدليلك . . . أنت منذُ الآن ــ كما قلتَ لك ــ أجنبيةٌ عنى ، ولا أدرى ماذا نصنعُ الآن ، ووالدتُك فى البيت ، ولا بدَ لنا من المكث فى حجرة واحدة . . . اسمعى : أنتِ لكِ السرير ، وأنا لى الأرض . . ها هنا بجوار الباب فى ذلك الركن البعيد . . . . هيا انهضى الى فراشك .. أنتِ فى أشد الحاجة الى الراحة الليلة ، بعد كل هذه الأحداث

المثيرة لأعصابك .

— تنام على الأرض ؟!

— لا يوجد وضع آخر .

— هذا صحيح ، مع الأسف ، ولكن سامحني . أرجوك . . أهكذا أجعل ليلة عرسك على هذه الصورة غير البهيجة !

— مالها ليلة عرسي ! إني راض بها . هل يتاح لكل عريس مثلها ؟ ثق أنه سيظل لها دائما في نفسي ذكرى عزيزة . .

— انك تريد أن تنفي عني كل مسئولية . . على كل حال الوقت الآن غير مناسب لمجادلتك . . فلأعد لك مكاناً مريحا لمبيتك . . فأنت الذي أنهكتك ولا شك هذه المفاجأة غير السارة ... أرى فوق السرير « مرتبتين » فلأفرش واحدة منهما على الأرض . . وليكن توزيع المكانين بيننا بالقرعة .

ما رأيك ؟ . . .

قالها مبتسما . .

— موافق . اني مطمئن الى سوء حظي .

ونهضت من فورها . . ونهض هو . . فتعاونا على نقل احدى حشيتى السرير . الى ركن من أركان الحجرة . . . وأخذت هى فى وضع الوسائد وتهيئة ذاك الفراش الأرضى ، حتى فرغت منه . فطلبت اليه عملة من ذات القرش ، واتفقا على أن الذى يخرج له الوجه ذو الصورة يظفر بالسرير . . ورمت بالقطعة النقدية فى الفضاء ، فاذا هى الظافرة . . فقال لها :

ـــ ألم أقل لك انى أعرف بختى ! !

ـــ انى أخطأت الرمى ، فلنعد القرعة من جديد . . .

ـــ لا . . لا . . من فضلك . . حافظى على مبدئك : الصراحة والصدق وعدم الخداع . . . لقد كسبت أنت وخسرت أنا . . فلا محل للمراوغة ولا لزوم « للحمرأة » !

فقبلت على مضض . . . وخرج من الحجرة الى أن خلعت ملابسها واندست فى سريرها ، فعاد وخلع ملابسه وأوى الى فراشه . . . ومدت ذراعها البضة المرمرية الى زر المصباح بقربها وهى تقول مستأذنة :

— هل أطفىء النور ؟

— اذا شئت . . وأتمنى لك نوما هنيئاً . . ومستقبلاً سعيداً مع من اختارته قلبك . . وانى واثقة انك أحسنت الاختيار . . . ولو انك لم تحدثينى عنه . . .

— انه ضابط . . ملازم أول . .

— وشاب جميل بالطبع ، ويصغرنى بعشر سنوات على الأقل فلا جدوى فى منافسة . . ولا أمل فى مقاومة . .

لفظها هامسا وهو يخاطب نفسه ، فسألته :

— ماذا تقول ؟

— لا شىء . . اطفىء النور . . . تصبحى على خير . .

* * *

مرت الأيام والزوج يمثل الدور المتفق عليه خير تمثيل ، ويشعر حماته برفق إنه ليس الزوج المثالى الذى كانت تتمناه لوحيدتها . . . غير أن المشكلة التى استعصت عليه هى مسألة الحجرة المشتركة . ان هذه الحال بينه

وبين زوجته ، المزيفة ، لا يمكن أن تدوم على هذا الوضع . . انه لا يستطيع النوم وهى معه فى غرفة واحدة ، هكذا كأنهما غريبان ، وبينهما حيوان شهوان ، بالحرمان يزأر وبالرغبة يجأر . . . إنه يحس كأن أنفاسها الحارة تلفح وجهه . . كل حركة منها تطرد النعاس من أجفانه ، اذا سعلت نهض يجرد نفسه من غطائه ليدثرها به . . واذا نفذ شعاع القمر من النافذة ، قام على اصابعه يتأمل وجهها البديع السابح فى ضوئه ، ثم يسدل بعد ذلك الأستار ، حتى لا يزعجها النور . واذا تقلبت على أحد جنبيها تقلب هو أيضا . واذا نهضت بالليل لحاجة ، تظاهر بالنوم العميق وكتم أنفاسه المضطربة ، حتى لا تعلم أنه يقظان . انها فتنة دائمة نائمة فوق سرير . . ولكنها مستيقظة ثائرة ساهرة فى جوفه .. كل شىء منها يقض مضجعه . ويحطم أعصابه وارادته ويجعله يضطرب فى فراشه كأنه ريشة : رائحة جسدها فى أنفه ، وتنهداتها اللطيفة فى النوم ، وشخيرها الخفيف الهامس المتقطع ، وطريقتها

العجيبة فى نومها ، وهى منبطحة على وجهها ، بشعرها المتدلى ونحرها العارى ووسادتها التى تضغطها وتضمها فى حضنها . . إنه لعذاب لا يستطيع أن يتحمله رجل من لحم ودم . . إنه تحمل ذلك ليلة وليلتين وثلاثا وأربع . . وكاد ينقضى الأسبوع . . ولكن المضى فى ذلك لفوق الطاقة والاحتمال . . . كيف يصنع ؟ والبيت ليس فيه للنوم غير المكتب أو البهو أو قاعة حجرتهما هذه ثم حجرة أخرى تشغلها حماته ، أيبيت فى قاعة الطعام ؟ وما عسى أن يقول الخدم والحماة فى هذا التصرف من عريس ؟ وحماته لن تفارقهما أبدا . اذ ليس لها غير ابنتها ملاذ . . لم ير إلا أن يصبر صبرا جميلا . وأن يسرع فى انهاء مهمته . وجعل يشتد يوما بعد يوم فى اظهار غلظ طباعه . . وحماته تتغاضى حرصا على هناء ابنتها . وابنتها لم تكن متقنة لتمثيل دورها . . فما كان يبدو عليها غضب من طباع زوجها « الموهومة » . ذلك انها كانت تعلم أنه اذا خلا بها فى الليل جعل يعتذر لها

عن اساءات النهار . . وانتهى بها الأمر ان صارت تسر لهذا اللون من التمثيل كأنها طفلة وتكاد تضحك بدل أن تغضب . . وهو يغمزها بعينه ، ويحثها على التظاهر بالتقطيب . . بل كانت تغلط أحيانا وتدافع عنه أمام أمها أو الزائرين اذا وجه الى طبعه نقد . . فتفلت من بين شفتيها كلمة « والله مظلوم ! » .

الى أن جاء يوم خطر فيه للزوج خاطر وجد فيه العلاج لسهاد الليل . ذلك أن يلجأ الى منزل صديق قديم عزب ، يرتاح عنده وينام من العصر حتى المساء . وأخبر حماته وزوجته أن أعمالا طرأت ترغمه على هذه الغيبة . . وصار لا يعود إلا فى العاشرة . وأحيانا فى منتصف الليل . ولا ضير عليه فى ذلك فهذا يمكن أن يدخل ضمن برنامج التمثيل لدوره البغيض .

وعاد ذات ليلة فى الثانية صباحا . فقد دعى الى عيد ميلاد صديق ، وكانت ليلة بريئة فيها طرب وغناء ومزاح . فرأى ، لدهشته ، زوجته تستقبله فى سريرها مستيقظة مقطبة . . لا

تقطيب تمثيل . . بل تقطيب غضب حقيقي . فلما أبدى لها العذر وبين لها السبب . سكتت غير مقتنعة ولا راضية ..

ومرت أسابيع ، فاذا هي تطلب اليه يوما أن يذهب بها الى السينما . . ورأى حماته تحبذ الفكرة قائلة :

— نعم . . اذهب يا ابني بعروسك وتنزها معا كما يفعل كل « العرسان »! فرأى من واجبه أن يكون فظا سيء الأدب فقال :

— ما كان ينقصني إلا هذا : أنا أخرج مع بنتك الى السينما ؟

— وما المانع ؟ أليست ظريفة جميلة ؟ انها عروس تشرف أحسن عريس !

— هذا رأيك أنت وحدك . .

— عيب يا ابني .

— على كل حال ، ليس عندي وقت أضيعه في نزهة بنتك .

وهنا احمر وجه الزوجة غضبا وقالت :

ـ وعندك وقت تضيعه فى السهر لما بعد منتصف الليل ؟!

ـ هذا شأنى .

ـ لن أخرج معك فى حياتى . . أبدا . . أبدا . .

وتركته وانصرفت مسرعة الى حجرتها . . وأطرقت الحماة أسفا وألما . . أما هو فقد خرج الى شأنه ، كما اعتاد أن يصنع فى كل يوم . . ولم يعلق بنفسه شىء مما حدث ، كالممثل بعد تركه خشبة المسرح ، وقد ضرب عليها وطعن وجرح . . وعاد فى المساء فوجد زوجته فى سريرها ، ووجهها فى وسادتها وقد بللتها بدموعها . . ولم تتحرك لدخوله . . وحسبها هو نائمة ، لولا شهيق خافت ، ونشيج غير مرتفع نبهه . . فذهب اليها يقول :

ـ مالك ؟ مالك ؟

فرفعت رأسها من فوق الوسادة ، والتفتت اليه وخيوط العبرات تلمع على خدها . . ولم تجب . . فقال لها بحنان :

— لم أرك تبكين هكذا منذ زمن بعيد . . أهو أيضا ؟

— من هو ؟

— الملازم . .

— أى ملازم ؟ آه . .

لفظتها مستدركة ، ثم قالت سريعا بنبرة عتاب مرة :

— لا . . لا تحاول التهرب من اساءتك . . بل اساءاتك المتكررة . . انى لا أستطيع أن احتمل منك أكثر مما تحملت هذا كثير على . . ما من امرأة تتحمل هذا من رجل !

— ماذا فعلت يا ناس ؟ . .

— أتنكر أنك آلمتنى اليوم ؟

— تمثيل طبعاً . . .

— هذه حجة بالية . . إنك الآن صرت تجعل من هذا التمثيل ستاراً تخفى وراءه كرهك لى . .

— سبحان الله ! . .

— إنك الآن أمسيت تتحاشى رؤيتى أطول وقت مستطاع

أتنكر ذلك ؟ إنك تنصرف مبكراً فى الصباح وأنا نائمة ولا تعود إلا فى الغداء .. ثم تخرج فلا أراك إلا فى العاشرة أو الحادية عشرة أو منتصف الليل .. إنى أسألك وأسأل نفسى :ماذا فى وجهى ينفرك أو فى شخصى يبعدك؟ . .

ـــ أهذا معقول ؟

ـــ أتقسم أنك لا تنفر منى ؟

ـــ أقسم أن هذا لم يخطر لى على بال .

ـــ لقد كنت ظريفا معى فى أول عهدنا .. شديد العطف على .. كثير الحنان ..

ـــ وأنا الآن كما كنت .. لم أتغير .

ـــ نعم .. أحياناً ونحن وحدنا فى هذه الحجرة تتلطف معى ولكنك أمام الناس ..

ـــ بالطبع .. أمام الناس يجب أن أكون غير لطيف .. طبقاً للخطة

ـــ أى خطة ! . . أتعرف أنها أمست لعبة سمجة ..

— ولكن ! . . هذا لا بد منه . .

— كان يسرنى تمثيلك أول الأمر . ولكنى الآن أراك جاداً فيه ، ويبدو لى كأنه حقيقة

— كثرة الممارسة تعلم الاتقان .

— كنت أفضل أن لا تتقن هـذا الدور . . حتى لايخالجنى شك . . كل كلمة منك الآن تطعننى حقيقة ، وتدمينى . . يجب أن تحذر قليلا . . لم يعد لأمر فى نظرى تمثيلا . . لقد اختفت كل لفظة رقيقة . . لماذا لا يمتد اتقان دورك أيضاً إلى ما يسرنى ؟ كنت تقول لى أمام والدتى « يا سونه » وأحيانا . . « يا سونتى » ماذا حدث ؟ لماذا لا أسمع هذا النداء منك اليوم ؟

— حصل تغيير فى الخطة . نظراً لضيق الوقت . .

— ضيق الوقت ؟

— ألا تعرفين ؟ نحن اليوم فى آخر أسبوعنا السابع . . ولم يبق أمامنا سوى بضعة أيام لنفترق . .

ـــ بهذه السرعة ؟ أواثق أنك لم تخطىء ؟

ـــ إطمئن ! إنى لا أغلط فى الحساب .. وكل يوم يمر أعده بكل دقة ..

ـــ تعد الأيام لتعتق رقبتك !

ـــ بل رقبتك أنت .

ـــ لم يبق إذن سوى بضعة أيام لنفترق ! .. ما أشد سرورك ! .. حدثنى ماذا ستفعل بعد ذلك اليوم ؟ وأين ستسكن ؟ ..

ـــ لا أدرى . لم أضع بعد برنامجاً لحياتى المستقبلة .

ـــ كم أتمنى أن تكون سعيداً فى حياتك المستقبلة . ترى هل ستذكر بالخير أو بالشر أيامى معك ؟

ـــ بالخير طبعا

ـــ وهل سيكون شخصى عزيزاً عليك !..

ـــ دائماً ..

ـــ أشكرك ..

ـ نامى الآن هادئة البال .. لقد تأخرت عن موعد نومك .

وجذب الأغطية ، وغطاها جيداً ، ومست كفه ووجها عفواً ، فمرغت خدها فى يده ، كأنها قطة تتمسح فى صاحبها وأحس دفء ذلك الخد المخملى الأسيل ، فسحب يده برفق .. وأطفأ النور فى سكون ، وذهب إلى فراشه صامتاً . .

* * *

مرت الأيام الباقية مراً سريعا ، فى جو عجيب رهيب . فهى قليلة الكلام نادرة الابتسام ، بادية الكآبة . وكأن على وجهها من الحزن المكتوم سحابة . . تجيبه إذا تحدث بنظرة فيها أشياء ، يفهمها ويدلها ويهتز لها فى أعماقه كأنها قصيدة بليغة . وقد شقت عليه مهمته ، فجعل يتحامل على نفسه ليستطيع أن يمعن فى اساءته لها أمام والدتها . .

وتهيأت أخيراً الظروف التى يستطاع فيها إصدار ذلك القرار الحاسم ، دون أن تتأثر الأم كثيراً أو تخدش سمعة الزوجة .

جاءت الليلة الأخيرة . فتعمد الزوج أن يعود فى الهزيع الأخير من الليل ، حتى يكون التعب قد أرغمها على النوم ، ولكنه وجدها ساهرة مستلقية على ظهرها فوق سريرها ، وضوء المصباح على وجهها الشاحب ، وكأنها تشخص ببصرها هى السقف .. فقال لها :

ـ عجباً ! . . ألم تنعسى بعد !

ـ كنت أنتظر عودتك

ـ لو كنت أعلم ذلك لجئتك مبدراً

ـ إنك تعلم ذلك

ـ ما هذه اللهجة المكتئبة والوجه الحزين ؟

ـ ليس هناك ما يدعونى إلى الفرح والاغتباط

ـ على النقيض ... كان يجب الليلة أن تكونى

مسرورة مرحة : غداً فقد تكونين حرة ، وتستطيعين الزواج ممن تحبين

— إنك تعبر عن احساسك أنت .

— لا شأن لك بإحساسى من فضلك ، إنى منذ خلوت بك فى هذه الحجرة ، فى ليلتنا الأولى ، وانا لا اهتم إلا بشعورك انت وحدك وموقفك ومشكلتك وقد عاهدتك على ذلك . . وأظن انى قد برئت بالوعد !

— نعم . لقد كنت رجلا شريفا .

— الحمد لله .

ووقع بينهما صمت عميق . . . واضطربت فى شفتيها كلمات ، لم تجرؤ على اخراجها . . وأخيرا تشجعت وقالت :

— اذن أزفت الساعة . .

— أعتقد ذلك . .

— هل . . . هل تحب أن تعرف شعورى الآن . . أو ترى من مصلحتك أن تتجاهله ؟ . . ثق أنه يشق على نفسى

إحراجك . . أظن من الخير لك أن أسحب كلامى ، ولا أسألك شيئا . وليكن ما فى قلبى مكتوما . ولا يجب أن أطمع فى نبلك أكثر من ذلك . .

— افصحى وكونى صريحة دائما .

— اذا طلقتنى فانى أموت .

قالتها سريعا ، وأخفت وجهها فى كفيها . ولم يكن فى صدقها خلجة شك . وكان صوتها صوت الصدق نفسه لو أنه أعطى لسانا . . فجلس زوجها على حافة سريرها ، وأمسك بيدها وقال :

— اسمعى يا . . سنية ! من الصعب على أن أنسى أنك أحببت شخصا آخر . . ذلك الحب الذى رأيت بعينى آثاره فى وجهك ليلة عرسى ! . .

— أعلم أنك لن تغتفر لى ذلك . وأحب أن تعاقبنى العقاب الذى تراه ، ولكنى أرجوك أن تصدقنى اذا قلت لك ان عواطفى نحو ذلك الشخص كانت عواطف طفلة لم تعرف بعد

ما هو الحب !

— انى لا أكذبك مطلقا .. غير انى واثق انك تقدرين موقفى . .

— نعم ، أقدر موقفك . . وأدرك ما يجول بخاطرك . . وأعرف السؤال الذى يمنعك أدبك من أن تسألنى إياه . ولكن أقسم لك أنه لم تكن بينى وبين ذلك الشخص علاقة تخجل أو صلة تشين . . كل ما فى الأمر أنه كان جارنا يوم كنا نقطن حى « العباسية » وكنت ككل فتاة غريرة يبهرها ذلك الزى العسكرى والقوام الممشوق ، وكان يحيينى وأحييه كلما تقابلنا فى الطريق ، وكان يحادثنى فى التليفون . . ولكنى لم أخرج معه قط .. ولم نجتمع على انفراد . . أؤكد لك ذلك وأحلف بكل يمين وسيأتى الوقت الذى تتحقق فيه من صدق قولى . .

— انى أرى الصدق فى عينيك . وهذا يكفينى . ولكنى

أخاف من أمر آخر . . حقيقة شعورك نحوى . . هل أنت واثقة . .

ـــ كل الثقة .

ـــ كيف تقطعين بذلك ؟

ـــ انك ترتاب . لأنك لا تعرف الحب . ولكنى أخبرك ما هو ؟ انه ليس فى تلك البهرة العاجلة التى تخطف أبصارنا ، ولا الهزة المفاجئة التى ترج قلوبنا . . ولكنه شىء يتكون على مهل كالجنين . أنه ينسج فتلة فتلة ، ويربط عقدة عقدة ، كشغل « التريكو » . . هكذا يتوثق الرباط بين قلبين . . مهما تشك فى قولى . . فانى لن أستطيع التخلى أبدا عنك . . انك ضرورى لى . . . بكل حسناتك وسيئاتك . . . انك لازم لى ، بمجرد وجودك فى هذه الحجرة . . أسمع سعالك ، ويؤرقنى غيابك . . وتسرنى عودتك ، ولو بعد منتصف الليل ، ويضحكنى بحثك فى الصباح عن جواربك تحت السجاجيد وعن حذائك تحت الأمتعة ، ووجهك الملطخ بالصابون وأنت تحلق . . وجرحك

لوجهك بالموسى ، ونسيانك منديلك قبل خروجك .. واعتمادك على لأذكرك بمحفظتك الملقاة على منضدتى . . وابتسامتك الساذجة اللذيذة ، وأنا أتمطى فى الصباح وأتثاءب ، وغضبك المفتعل وصياحك التمثيلى .. أمام والدتى ، وكلامك لى عن عملك كأنى أفهم دقائقه . ثم تذكرك فجأة أنى لست حقيقة لك فتبدى معى التكلف . . ثم تنسى فتتبسط وتدللنى وتلاطفنى . . وتطرى ثوبى الجديد ، ثم عاداتك فى الطعام عرفتها وتعلمتها . . فالخبز يجب أن يسخن ويحمر ، والأرز يؤكل مع الخضر . . حتى نومك . . عرفت فى أى ساعة من الليل تكون على جنبك الأيسر . . كيف تريد أن أتخلى عن كل هذا ؟ . . تلك تفاهات صغيرة ، ولكنها هى الحلقات الدقيقة الوثيقة فى « تريكو » الحب الزوجى . .

— « تريكو » ! . . يا له من تعبير ! لا تنسى الأبرة الطويلة من فضلك ! إنها خطرة ، وهى فى يدك أنت !

فضحكت ضحكة رقيقة . . ثم قالت بنبرة جد :

— لا تخش شيئاً منى أبدا . . .

فأطرق ملياً . . ثم رفع رأسه وقال :

— سونه . . دعى لى وقتا للتفكير !

— لم أسمع منك لفظ « سونه » منذ دهور ! . . لم كل هذا الخوف منى ؟ . .

— ليس منك . . ولكن على كنوزى . كنوز البخيل التى ادخرها فى قلبه . نامى يا سونه الآن . . وفى الصباح نفكر وقد يأتى الفرج . .

وغطاها كما اعتاد أن يفعل ، وأطفأ النور وذهب إلى فراشه الأرضى فى ركن الحجرة . .

ولم يكد يأوى إليه ، ويسحب غطاءه عليه ، حتى سمع صوت سونه تثب من سريرها . . وإذا هى قد دلفت إلى فراشها . واندست تحت الغطاء إلى جواره والتصقت به والتحمت بجسده وهى تقول :

— أنت زوجى أمام الله والناس وقلبى ، ولن تفلت من

بين ذراعى . . أبداً . .

وطوقته وضمته . . وإذا هو يجد نفسه فى مكان الوسادة التى اعتادت أن تحتضنها ليلا . .

وكانت تلك هى ليلة عرسهما ، ولعلها أول مرة فى تاريخ الزواج يهجر فيها العروسان سرير الزفاف ، ليفترشا الأرض متعانقين . . .

طریدالفردوس

— سنذهب إلى الفردوس ...

— بعد عمر طويل ؟.. إن شاء الله !

— الآن ...

قالها صاحبي المرح ، وهو يدخل بي ذلك المساء حانة من حانات القاهرة ، كتب على بابها بلون أخضر « بار الفردوس » وأجلسني من الفور وجلس إلى مائدة ، يبدو أنها محجوزة له، موقوفة عليه ... وأدار بصره في المكان وحيا بنظرة صاحب البار واخوانه ، وبابتسامة حور الحان وولدانه .. وصفق طالباً الشراب وهو يتلو :

— قال الله تعالى : وما الحياة الدنيا إلا متاع ...

ـ أكمل الآية من فضلك ...

ـ لم يتسع فؤادي لأكثر من هذه الجملة ...

وأقبل الساقي بالأقداح ، وأراد صاحبي أن يقدم إلى قدحا فقلت له :

ـ ذنوبي قد فاضت بها كأسي فلا حاجة بي أن أزيد عليها قدح خمر . . إذا أردت أن تكرمني فاطلب لي عشاء ! . .

فأذعن لرغبتي ... وطلب لي الطعام ، فطفقت ألتهم ، وجعل هو يرشف من كأسه .. ويقول :

ـ يعجبني أن يعرف الانسان أن له ذنوباً ... إذا عرفنا ذنوبنا عرفنا حدودنا ... وإذا عرفنا حدودنا لزمناها وأبينا ان نتعداها .. وها أنذا قد رفضت أن تتعدى حدودك !.. سأقص عليك قصة ثق أنها ليست من وحي شرابي ، لقد وقعت بالفعل وفي هذا المكان بالذات ... وإذا لم تصدقني فسل كل هؤلاء الحاضرين . . ولكنك تعرف اني لم أكذب

عليك يوماً . .

فلم يستطع فمى المملوء بالطعام أن يجيب . . . فاكتفيت بهز رأسى علامة المصادقة . . فمضى الصديق يروى قصته :

« لست أذكر هل سبق لى أن حدثتك عن ذلك الشيخ الصالح الذى يتبرك به أهل بلدنا فى الريف ؟.. الشيخ عليش ؟.. رجل ولد بعينين فى رأسه ، ولكنه لم ير بهما غير السماء .. ويبدو لنا أنه منذ نزل من بطن أمه ، وضعوه فى إناء من زجاج وختموا عليه ، حتى لا ينفذ إليه هواء البشر ، ولا تنسل إليه جرثومة من جراثيم الشر . . . رجل لا يعرف ما هو الذنب ، ولا السيئة ولا الزلة ولا المعصية . . ما كنا نبصره إلا ساجداً أو هائما فى ملكوت الله ، لا يفطن إلى نفسه ولا إلى من حوله . . . ولا يفرق بين الناس والهوام . . . لم يؤذ إنسانا ولا بعوضة ، ولا يملك من دنياه غير مسبحة من حصى ، وغير موسى يحلق بها شعر رأسه ، وغير عمامته العتيقة ، وأطماره المهملة ، ولحيته المرسلة . . . هكذا عاش ، يأكل من عشب

الأرض أحيانا كأنه دابة ، ويقضم ما يلقى فى حجره أحيانا من كسرات المحسنين على غفلة منه أو سهوة ، فهو لا يسأل أحدا شيئا . . .ولا يطلب إلى الدنيا متاعا . . . إلى أن مات الشيخ ذات يوم ولم يبلغ الأربعين . . وكنت بالمصادفة فى الريف ، وأبصرته بعينى مع غيرى من الناس ، وهو ملقى فى مكانه ، مسجى على الغبراء ، وقد طرحت عنه عمامته فبدا رأسه الحليق ، كالصخرة اللامعة الملساء ، وسقطت إلى جانبه المسبحة ، وظهرت من حزامه يد الموسى . . . وسكنت حركة لحيته التى ما كانت تهتز إلا لذكر الله . . . وهبطت على الناس رحمة به ، فاجمعوا على أن يبنوا عليه ضريحا . . . وما تركت الريف حتى كان الضريح قائما على جثمان الشيخ عليش ، وقد ساهمت بنصيبى فى إقامته ، وقلبى جياش بالتأثر ، ونفسى فياضة بالخشوع . . . وعدت الى القاهرة ، وعاد إلى ضعفى ، قاتله الله . . . وجذبتنى قدماى إلى مكانى المألوف من هذه الحانة . . فما نحن إلا بشر ، لم يكتب لنا السمو على أنفسنا

غير لحظات . . ومرت أيام . . . وإذا بى أسمع جلبة من مكانى هذا ، فاستدرت فأبصرت على هذه المائدة من خلفى شيخا رث الهيئة ، قد أحاط به خدم المحل ، يحاورونه ويحرجونه ويفهمونه أن الموضع ليس موضعه ، وأن من الخير له أن ينصرف بالحسنى فتتبعت المحاورة ، ثم سددت إلى الشيخ البصر . . ويا لهول ما رأيت ! . . كلا . . إنه ليس الوهم ولا السكر ولا الجنون . . بل هو الشيخ عليش بشخصه ولحمه ودمه وعمامته وأسماله ومسبحته وموساه . . . وفركت عينى وطلبت فنجانا من قهوة ثقيلة على اليقظة . . ثم سألت صاحب الحانة أن يمتحن أستعين بها عقلى . وطلبت إلى غانية من حسان المكان أن تفحص صحوى فنظرا إلى بريبة أول الأمر ، ولكنهما خضعا لأصرارى ، ولم أتركهما حتى أقرا واعترفا أنى ثائب إلى رشدى ، مالك لصوابى .. فتقدمت إلى الشيخ ، ونحيت عنه الخدم ، وقلت له بصوت متهدج :

ـ ما اسمك أيها الشيخ ؟ . .

فما راعنى إلا قوله ، بجد وصراحة وثبات :

ـ عليش !

وكان الصوت صوته ، والنبرة نبرته ، فكدت أجن ، ومضيت استفسر منه :

ـ الشيخ عليش من بلدة . .

فذكر لى اسم البلدة والقرية من ذلك الريف بما لم يدع فى نفسى ذرة من شك . .

ـ ساكن الضريح الذى ساهمت فى . .

ـ نعم . .

ـ وكيف تركت ضريحك وجئت ها هنا . . . لقد أبصرتك بعينى رأسى وأنت ميت . .

ـ نعم . . لقد مت حقا . . وأردت ان أدخل الفردوس ولكنهم طردونى ! .

ـ الفردوس ؟ ! . . أيمكن أن يغلط الإنسان إلى هذا

الحد ؟ ألا تستطيع أيها الشيخ الورع أن تفرق بين الفردوس الذى فى السماء ، و « بار » الفردوس الذى فى شارع عماد الدين ؟ !

— لا . . لم يحصل منى غلط ! لقد صعدت فعلا إلى السماء ، وطرقت باب الجنة ، فمنعنى حارسها من الدخول ، واعلن إلى أنى لست من أهلها ، ونصح لى أن أطرق باب النار ، فصدعت بالأمر دهشا حزينا وطرقت باب النار ، فمنعنى حارسها أيضا من الدخول ، وأعلن إلى انى لست كذلك من أهلها . . فحرت فى امرى ، وصحت شاكيا سائلا الهداية ، طالبا البت فى مصيرى ، وأخيرا قالوا لى : ليس فى السماء موضع أوضع فيه . . لأن الدنيا معركة بين الخير والشر ومبارزة بين الفضيلة والرذيلة تقوم فى نفس الإنسان ، فاذا انتصر الخير دخل الإنسان مملكة الخير وهى الفردوس ، وإذا انتصر الشر دخل مملكة الشر وهى الجحيم . . أما أنا فلم تقم فى نفسى معركة ، ولم يحدث انتصار ، ولم أواجه الشر لأغالبه . . فأنا فى نظرهم

كالفار من الميدان ، أو الهارب من الامتحان ، فكيف يجوز لهم أن يثيبونى أو يعاقبونى ، وأنا لم أعرض نفسى لإحداث الحياة، حتى يظهر معدنها الخير من معدنها الشرير ؟ . . إنى فى نظرهم غشاش مخادع ، لجأ إلى أيسر السبل لينال الجائزة دون أن يواجه الخطر ! . وانتهى أمرهم إلى إعلان هذا القرار فى أمرى : وهو إلغاء حياتى الاولى واعتبارها كأن لم تكن ، وطردى من السماء . لأعيش مرة أخرى على الأرض ، بنفس جسمى وروحى وكيانى الأول ، على أن أتقدم للامتحان العسير ، وأواجه الشر وانازل الرذيلة ليعرفوا بعد ذلك من أمرى ما ظهر وما استتر . . وألقوا بى إلى الدنيا من جديد بعين ثيابى وهيئتى ، فوقعت على القاهرة ، وأنا لم أزل فريسة حزنى ويأسى من ضياع جنتى ، أردد كالمجنون عن غير وعى : « الفردوس . . . الفردوس ! . » فدفعنى أحد المارة إلى هذا المكان قائلا لى « ها هو ذا الفردوس ! . » فدخلت ، وإذا بى أجد فيه أيضا من يطردنى منه . . حتى أنقذتنى أنت أيها الرجل

الطيب . .

عجبت لقصة الشيخ ، وأخذتنى به شفقة . . وقلت له :

— لا عليك أيها الشيخ المبروك . ما حدث لك لا يحدث لأى انسان . إنما هى كرامه من كرامات أولياء الله . . أن يسمح لبشر أن يعيش مرتين فى هذه الدنيا . . .

ثم أنهضته برفق وأجلسته باحترام إلى مائدتى ، وقلت له :

— والآن . ماذا تنوى أن تصنع فى حياتك الجديدة ؟ . .

— أواجه الشر . . . إذا أردت أن تخدمنى أيها الرجل الطيب فدلنى أين أجد الشر . .

فضحكت قليلا ، وقلت :

— هذا شىء بسيط . . وإن كنت شخصيا لست بالدليل البارع فى هذا السبيل . . ولكنى أستطيع على كل حال أن أعرفك بالشر فى أهون مظاهره . . .

وصفقت للساقي فحضر . . فقلت له :

ا — زجاجة شمبانيا لفضيلة الشيخ ! . .

فحملق « الجرسون » في وجهي ثم تنبه وأسرع يلبي الأمر ولم يلبث أن عاد بالزجاجة غارقة في إناء الثلج ، وفض خاتمها الفضي ، فانطلقت السدادة كأنها مدفع . . نبه الينا حسان الحانة . فصوبن الينا نظرات دهشة مشدوهة ، أتبعنها ببسمات ثم ضحكات خافتة مكتومة لهذا المنظر الفريد في الدهر . .

— في صحتك ! . . .

ورفعت كأسي وأشرت اليه أن يرفع كأسه . . فرفعها بيد مرتجفة ورشف منها بحذر كأنما يرشف سما . . ولم يدر بخلدي قط أني جرعته حقا سما سيمري في حياته الجديدة ، ويفعل بها الأفاعيل . . ولم أفطن للأمر إلا بعد أن جرع الشيخ كأسه الثالثة . . وثمل وانقلب يغني بالتواشيح الدينية والمدائح النبوية تارة ، ثم يسبح بأسماء الله على مسبحته بصوت

السكارى . . وهذا كل ما يعرف طبعا من غناء دفعته اليه النشوة . . فبذلت جهدا فى إسكاته ، خشية الفضيحة .. وصيانة لمقام الدين ونحن فى هذا المجال . . فاقتنع الشيخ ، وترك الغناء بهذه الأشياء المقدسة .. وتلفت ذات اليمين وذات اليسار فلمح غانية ظريفة فتنحنح وقال :

ـ أعطنى هذه الحورية ! . .

فأومأت اليها ، فأقبلت وجلست وأوصيتها بمداعبة الشيخ ، فداعبته ولاعبته حتى ذهبت ببقية لبه . . وخطر له وهو فى أوج انشراحه ، وترنحه أن يسألنى عن إسمى ، فراوغته ، فقال :

ـ ولماذا أسألك . أو تظننى أجهلك .

ـ أتعرفنى ؟

ـ طبعا . . أنت رضوان . . الذى أدخلنى هذا الفردوس بحوره العين . . !

وقهقه ضاحكا ، ومال على الغانية يضمها . . وانتصف

الليل ثم دقت الساعة الواحدة ، وأقفرت الحانة ، وأراد صاحبها أن يغلقها . وهنا راحت السكرة وجاءت الفكرة . . ماذا أنا صانع بهذا الشيخ صاحب الكرامات ؟ . . . وأين يكون مقره ومقامه ؟ . . . ليس من المعقول أن أسحبه معى أو أذهب به إلى منزلى . . وليس من المعقول أيضا أرده الى ريفه وأعيده إلى ضريحه ! . . ما الحل ؟ أين يبيت ليله ؟ . .

وتأملت الأمر مليا . . ثم قلت فى نفسى : «ولماذا اتعب نفسى به ؟ ما شأنى بهذا الشيخ ولى الله . . هل عينني أحد ولى أمره ؟ ! . . وهل قذفوا به من السماء لأحمله أنا على ظهرى ! . . »

وهدانى الله إلى وسيلة . . أن أنقد الغانية مبلغا لتخرجنى من المأزق ، وتبقيه معها ريثما أنصرف بسلام . . ولها بعد ذلك أن تؤويه أو تلقيه . .

وتم لى ما دبرت ، وأنقذتنى الغانية الكريمة ، وانصرفت

إلى بيتي ، وانقطعت عن هذه الحانة أسبوعا ، خشية أن صادف الشيخ ، فيتعلق بي ويرغمني على مصاحبته ومسامرته وتحمل تبعته وشأنه وهمه ومستقبله . .

ومضى الأسبوع فلم أجازف بالذهاب . . وآثرت الاتصال بصاحب الحانة بالتلفون . . فما كاد يسمع صوتي حتى صاح بي قائلا :

ـــ ما هذه المصيبة التي نزلت علينا . .

ـــ اي مصيبة ؟

ـــ صاحبك الشيخ . . . إنه لا يريد أن يترك المحل لا ليلا ولا نهارا . . وكلما ناقشناه صاح فينا لن أذهب أبدا . . المؤمن لا يطرد من الفردوس مرتين ! . .

ـــ وماذا صنعتم به ؟

ـــ لا شيء . . صنعنا له صندوقا لمسح الأحذية ، وحلقنا له ذقنه ، والبسناه جلبابا . . . وألحقناه بخدمة المحل ، ينظفه بالنهار ، ويلمع أحذية الزبائن بالليل ! . .

ـ فكرة نيرة جدا . .

قلتها بكل إخلاص ، وكل إعجاب . . ولكن هذا لم يمنعنى من تعمد الانقطاع عن الحانة زمنا آخر ، حتى يلتصق الشيخ عليش بصفته الجديدة تمام الالتصاق ، وينسى الليلة المعهودة تمام النسيان ، فلا يلحقنى من لقياه متاعب . . .

* * *

ومرت أعوام ثلاثة . . دون أن أضع قدمى فى تلك الحانة . . لا تعمدا بل طاعة لأمر القدر . . أو بل أمر الحكومة ، فقد دس لى الحاسدون النمامون لدى رئيسى الجديد « الغشيم » اللئيم ، واتهمونى لديه ظلما بأنى قليل العمل كثير الكسل ، مدمن على السكر والعربدة وارتياد الحانات . . فما راعنى ذات صباح إلا أمر من الوزارة بنقلى إلى أقاصى الصعيد . . فمكثت هناك إلى أن اذن الله والمساعى المثمرة بعودتى .

فما أن استقر بي الحال في عمل الجديد بالمصلحة ، حتى شعرت بالحنين إلى حياتي الماضية . . ونشطت ذات مساء قصد هذه الحانة ، وكنت قد نسيت الشيخ عليش وما جرى له بالتمام . . فدخلت وأجلت النظر في المكان ، فلم أجد شيئا على حاله القديم . . كل شيء قد تغير : مائدتي المختارة ، والغانيات والساقون و « البارمان » ، وحتى مدير المحل . . لم يبق شيء مما كان سوى اسم الحانة ، فهو هو دائما لم يتغير : « بار الفردوس » ! . .

وقفت لحظة حائرا لا أدري أين أجلس . . حتى لمحت غانية من بنات الهوى ، قد اعتلت البار . . وهي بمفردها تدخن ، والدخان مغيم حول وجهها الأبيض المستدير كأنه السحاب حول القمر . . . فاتجهت اليها ، ووقفت بجوارها وطلبت لها كأسا ولي أخرى ، وأخذت أغازلها بكلمات محفوظة مما يناسب المقام . . إلى ان قطع الحديث ماسح أحذية ، يهمس قربي « تمسح يا بك ! » . . . فارتجفت ونظرت اليه ، وتذكرت

فجأة الشيخ عليش . . وقلت فى نفسى . ماذا أنا فاعل لو ظهر الشيخ بصندوقه ، وماذا أنا قائل لو جذب حذائى ليمسحه ؟ أأدفعه اليه ، أم آباه عليه . . ترفقا به واحتراما له ! . . .

ورفعت الغانية قدحها الى شفتيها ، وهى تنظر إلى باب الحانة قائلة لى بقلق :

ـ لن أقف طويلا معك . . . إنى أخاف أن يحضر فيرانى . . إنه شديد الغيرة ! . .

ـ عمن تتكلمين ؟

ـ علوى . . علوى بك ! . .

ـ علوى بك ! . . من هذا ؟ . .

فظهر على وجهها الاستغراب ، والتفتت تحدق فى وجهى وهى تقول :

ـ عجبا ! . . ألم تسمع بهذا الاسم ؟ كل شارع عماد الدين يعرف من هو علوى ! . . يظهر إنها أول مرة تدخل فيها

البارات والكباريهات ؟ . .

ـــ حقا . . منذ أكثر من ثلاثة أعوام ! . .

ـــ لقد اقترب موعد مجيئه . . أنصحك أن تبتعد عنى بمجرد إشارتى لك بالابتعاد . . وإلا فأنا لست مسئولة عن منخارك أو أذنيك اذا أطاح بها حد الموسى ! . .

ـــ يامغيث ! . .

قلتها هامسا مرتعدا . . وأنا أنظر الى الباب . . ثم خطر لى أن أبتعد بكاملى عن المرأة منذ الساعة ، دون انتظار للمقدر والله يغنينا عن قربها المحفوف بالمخاطر . . ولكنى خشيت أن أبدو على هذا الجبن أمام امرأة ، لعلها ما قصدت إلا العبث بى والمزاح معى . . . وتجلدت قليلا ، واستأنفت الحديث والمغازلة . . وإذا هى فجأة تلتفت الى الباب ، كالقطة التى أحست بغريزتها حركة .. ثم ادارت لى ظهرها ، ونأت عنى بقدحها . . فأدركت أن صاحبها قد حضر .. ولقد شعرت بالفعل كأن الحانة كلها قد مستها شرارة كهرباء .. فقد

ساد بغتة صمت لدخول ذلك الرجل . شمل الحاضرين من زبائن وساقين إلى مدير المحل الجالس فوق المنصة .. فرفعت عيني بحذر وأدب أتفحص ذلك الذى يسمونه « علوى » .. فرأيت رجلا أنيق الملبس ، خفيف الشارب ، لامع الشعر يتضوع منه عطر السكلونيا الثمين . . وخاطب الرجل بلهجة الأمر « البارمان » فخيل إلى أنى أعرف هـذا الصوت ، واحتلت لأنظر إلى وجهه مليا . . فاذا الدهش يعقد لسانى : لم يكن علوى بك هذا غير الشيخ عليش فى قالب جديد ! . .

ولم أدر ماذا أصنع عندئذ . . هل أحادثه ؟ هل أنسحب من المكان دون أن اشعره بوجودى ؟ .. وتساءلت أترضيه مقابلتى اليوم ام تزعجه ؟ . . ليس لى أن أبدأ على أى حال بشىء . . . ولكن الظروف سرعان ما تدخلت . . فقد أراد هو أن يخرج من جيبه الخلفى علبة السجاير . فصدمتنى يده على غير انتباه منه . فالتفت نحوى .. وتقابلت عينانا

فحملق فى وجهى لحظة ، كمن يراجع ذاكرته .. ثم ما لبث أن انفرجت شفتاه عن صيحة دهت الحاضرين :

ا — رضوان ! ..

ثم فتح ذراعيه ، وعانقنى عناقا طويلا .. فرحا كالطفل ، مبتهجا كمن لقى لقية .. وهو يردد : « رضوان .. صديق رضوان ! » .. وقبل أن أفتح فمى بحرف ، جذبنى من يدى وقادنى الى مائدة فى طرف الحانة كأنما يريد ان ينفرد ويستأثر بفرحة العثور على ... وصفق ينادى « الجرسون » :

— زجاجة شمبانيا ! ..

— هكذا سريعا ؟ ! :

— دعنى أرد اليك بعض دينك ! أين كنت طول هذا الزمن ؟ .. لقد بحثت عنك فى كل مكان .. ولكنك اختفيت فجأة . هأنذا أعثر عليك الآن فاتركنى أرد اليك الحسنة بعشرة أمثالها ! ..

ـ لست أدرى هل تعتبر فعلتى حسنة ؟ ! ..

قلتها كالمخاطب لنفسى ، وأنا اجيل بصرى المشدوه فى كل جزء من اجزاء هذا الكائن الذى كان يسمى فيما مضى « الشيخ عليش » كلا . .. إن التغير الذى طرأ عليه لا يمكن ان يسمى تغيرا ولا تطورا ولا انقلابا .. إنه شىء لم يوجد له بعد إسم .. الوجه وجهه والصوت صوته ، ولكن اللهجة التى بها يتحدث ، والطريقة التى بها يشرب ، والاسلوب الذى به يسمر والعقل الذى به يفكر والنفس التى بها يشعر .. كل هذه أشياء أراها لأول مرة .. على ان عينى الفاحصة دلت على شىء عنده سبق أن رأيته ... طرف الموسى البارز هذه المرة من جيب الصدر ، خلف منديله الحريرى المتهدل .. ولم يدعنى استغرق فى دهشى وتأملى .. فقد رفع كأسه قائلا :

ـ فى صحة رضوان ! ..

فرفعت قدحى :

— فى صحة علوى !

وشرب كأسه كلها فى جرعة واحدة .. ثم التفت الى قائلا:

— أرى ان عطشك الحقيقى هو الى معرفة شىء عن صديقك الجديد « علوى » ؟ ! .

— طبعا ! ..

فأشار الى ماسح الأحذية الذى يجوس بصندوقه خلال المكان وقال :

— لقد بدأ هكذا . . .

ثم أخذ صوته يخفت كلما أوغل فى الحديث ، كأنما يدلى باعتراف أو يسعى الى مخاطبة النفس . . . ثلاثة أشهر او اربعة حمل فيها صندوق الأحذية وتعلم خلالها النشل والمقامرة والمغامرة وخدمة الغوانى .. إلى ان تجمع فى يده مبلغ من المال .. فطرح صندوقه وجلبابه ، واشترى بذلة نظيفة وصار افنديا .. ولكن صلته بالغانيات وحاجتهن إلى الحماية جعلتا منه فى نظرهن رجلا لا غنى لهن عنه .. ولقد تبين له

بعد قليل أن هذا عمل مربح .. فقد كثر عدد المحتاجات الى يده وحمايته .. وشاع عنه ذلك فى هذه البيئات ، وشاهد الناس من خوارق براعته فى استخدام الموسى ما جعلهم يحسبون لغضبه حسابا . . وامتد نفوذه الى أكثر البارات والحانات ، بمن فيها من نساء وزبائن وساقين . . . فهو الآن يرتاد أغلب أماكن اللهو ، ويطلب ما يريد ، دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض أو المطالبة . . بل هو الذى يتقاضى من اصحابها الأتاوات والمرتبات لضمان الهدوء فى هذه المحال . وهو احيانا يشتط فى الطلب ، ويركن إلى التهديد واحداث الشغب فيذعن من يذعن ، ويلجأ البعض إلى بيع حاناتهم هربا منه وضيقا . . كما حدث للمالك السابق لبار « الفردوس » . . هذا هو علوى . وهذه حياته . . . رواها بلهجة سريعة مقتضبة . .

ثم التفت الى قائلا :

— والآن .. ما رأيك ؟..

فأجبتنى الحيرة . ماذا أقول ؟ .. وكيف أمسه بنقد وهو شارب ، والموسى فى جيبه . .. ولكنى أجبته برفق :

— لقد كنت هبطت الأرض لتواجه الشر فيما اذكر وتنازل الرذيلة ؟ . .

— ماذا تقول ؟ ..

— ألا تذكر أنهم انزلوك إلى الأرض من جديد لتنازل الشر ؟ ..

— من الغريب انى نسيت ذلك . لقد استغرقتنى حياتى وجرفتنى ، فلم افطن الى ما جئت له . . .

— الم تصادف الشر ؟ .. الم تر الرذيلة ؟ ..

— اين ؟ ..

قالها كالتائه أو المحدق فى الظلام . . فالقيت نظرة إلى الزجاجات الثلاث التى أفرغها فى جوفه ، منذ جلوسنا . . ثم تأملت حاله ، فلم أجد للشراب أثراً فى صوابه . . هو إذن

صادق فى إحساسه . . لقد جرفه التيار إلى حد ألهاه حتى عن سؤال نفسه ، فى أى طريق يسير ؟ . . . . يا لها من هزيمة ! إنه لم يثبت للنزال ، لقد تلاشى الشيخ عليش ، وتلاشت عمامته ومسبحته بلمسة خفيفة من ظل الرذيله لقد رفع فى الميدان الراية البيضاء دون وعى منه ، قبل أن يفطن حتى إلى وجود عدو ومعركة ! . .

وأطرق الرجل طويلا . . ثم قال بذلك الصوت الخافت الصاعد من أعماق نفسه :

ـــ فى يدى المال والسطوة والمتعة . . ولكنى . . مخلوق شقى ! . .

ـــ أبدأ ضميرك يعذبك ؟

ـــ ضميرى ؟ ! . . أعرف الآن ما هو ؟ . . أتستطيع أن تجيد الإصغاء إلى . . لأخبرك ؟ . .

ـــ نعم . . أخبرنى بكل شىء . إنى احس كأنى مسئول . .

فقاطعنى بتصفيقة قوية ينادى بها الساقى وهو يصيح :

— زجاجة أخرى ! . .

ولكن مدير المحل أومأ إلى « الجرسون » أن يتغاضى ويتصامم وصفق علوى مرة ثانية وثالثة . . فلم يجد ملبياً لندائه ، فاطلق صيحة مدوية ضج بها المكان ، فحضر إليه مدير المحل يقول :

— علوى بك ! . . ألا تكفى ثلاث زجاجات من الشمبانيا الفاخرة . . هذا كثير ! . .

— الكثير أذناك اللتان لا تسمعان طلبى . . سأريك أن واحدة منهما تكفيك لسماعى ! . .

وفى مثل لمح البصر ، استل موساه من جيب صدره . وقذف مدير المحل .. وكنت لحسن الطالع قد فطنت لقصد صاحبى ، فدفعت بكل قواى مدير المحل بعيداً عن مرمى النصل ، فنجا واستقرت الموسى فى خشب المنصة ! . وهاجت الحانة وماجت ولكن مان أحد تحرك من

مكانه ، فقد كانت لعلوى هيبة .. فتسمر الحاضرون فى مكانهم رهبة أو وهما .. وقام وهو يمشى على مهل بجلال إلى المنصة فنزع عنها نصله البراق وطواه ودسه خلف منديله وأراد أن يعود إلى مجلسه من الخوان ولكنى أمسكت بذراعه وسالته بلطف أن يخرج معى من الحانة لنستأنف حديثنا فى هواء الطريق الطلق .. فاذعن مرغماً لرجائى وخرج معى .. وهو يهمس بغضب مكتوم :

— لا يستطيع أحد أن يخرجنى قهراً من هذا ... «الفرد وس»!

— قهراً لا .. لقد خرجت بارادتك ! ..

قلتها له بلهجة التهـ المداراة خشية من بوادره ، وتهدئة لثائره . ثم سألته ونحن فى الشارع سائران أن يمضى فى حديثه ، وان يخبرنى بما كان يزمع إخبارى به .. فنظر فى ساعة ذهبية بمعصمه وقال :

— لا أستطيع الآن .. غداً اذا شئت .. وموعدنا

فى عين هذا المكان . .

— عين هذا البار ؟ ! أو هذا ممكن بعد الذى حصل ؟ .

— ماذا ؟ . . هذا يحصل كل يوم ! . .

* * *

لم أتمكن من مقابلته فى الموعد المحدد .. فقد دعيت إلى عرس أحد أقربائى فى الريف .. فسافرت ولبثت هناك بضعة أيام ، رأيت فيها العجب : ضريح الشيخ عليش أصبح كعبة يحج اليها مئات الناس من القرى المجاورة ، يحملون اليه الشموع أيام الأسواق ويوفون بالنذور .. وينوهون بكراماته العديدة فى ابراء الامراض وقضاء الحاجات . . .

ولقد أبصرت إمرأة ترفع طفلها العليل بيديها ليلمس شباك الضريح ، ويتلقى من مس حديده البركة ، وهى تصيح من أعماق قلبها :

— ياشيخ عليش ! . ياولى الله ياساكن الفردوس ! .

نظرة .. مدد .. نظرة .. مدد ! ..

ولقد سمعت رجلا يهز باب الضريح صائحا :

— ياشيخ عليش ! . ياحليق الرأس . . . خد بيدى ، واشف وجع رأسى !

أبصرت ذلك وسمعته كثيرا من أفواه كثيرة . . وقلت فى نفسى : منذا يستطيع أن يقول فى هذه الجموع المؤمنة الآملة إن الشيخ عليش لا يوجد الا فى بار « الفردوس » بشارع عماد الدين ، وان من يدعونه ولى الله حليق الرأس ليس سوى « بلطجى » يحلق الآن الأنوف والآذان بموساه من رؤوس الناس ! ! . .

لو قلت لهم هذا القول لرجمونى بالحجارة ، وصاحوا : اقتلوا الكافر ! . . إهلكوا الكافر ! . .

على ان العجيب فى الأمر أن كثيرا من هؤلاء المرضى الذين يزورون الضريح يشفون حقا . . ولقد أكد لى ذلك من يوثق بقولهم من جلة اقربائى فى الريف . .

ولقد فكرت فى ذلك قليلا ، فزال عنى العجب : يا لهؤلاء الناس ! . . انهم هم الذين يشفون أنفسهم بأنفسهم وهم لا يعلمون . أن الناس لا تريد أبدا أن تصدق القوة الخفية الكامنة فى اعماقهم . ولا بد أن يخترع لهم وهمهم قوة خارجية ينسبون اليها ما يأتون هم من معجزات ! . .

وتخيلت حال الشيخ عليش او علوى بك لو أخبرته بأمر هذه الكرامات التى تفيض على الجموع من نوافذ ضريحه . . بينما هو غارق فى خمور البارات والحانات . . ولكنى رأيت أن أمسك عن أخباره وأن ألزم الصمت المطبق ، رحمة بجيوب العباد . . فانه لو علم ، لحضر إلى الريف واستغل هذا المنجم الذى لا ينضب . . . وحسبى ما اقترفته من إثم ما زال يؤرق ضميرى ، إذ دفعته إلى طريق الموبقة أول ليلة . . فلا ينبغى أن ادفعه الى طريق إثم جديد . . فليبق اسمه منبع رحمة للناس وليذهب جسمه إلى الجحيم . .

° ° °

عـــدت إلى القاهرة .. وذهبت فى المساء إلى حانة « الفردوس » فتلقانى مدير المحل بالترحيب ، وشكر لى موقفى وتدخلى فى تلك الليلة التى هاج فيها علوى وقذفه بالموسى .. وقال لى إنه كان ينوى ان يخبر البوليس ، وان يجازف ويتعرض لانتقام علوى .. فهو يعلم أنه لن يتركه فى هدوء إذا هو بلغ عنه .. فهو له اعوان . وانه سينتقبه بالويل ولو بعد أعوام من سجنه ... لو سجن ... ولكنه آثر ضبط النفس ، والتغاضى عن الحدث .. لأنه يعرف علوى منذ زمن ، ويعلم أنه سريع الغضب سريع الصفاء .. والخير فى استئناف الصلات الودية مع مثله ... غيرانه يلاحظ عليه فى الأسابيع الأخيرة تغيرا غريبا . وليس هو وحده الذى رأى ذلك منه .. غانيات الحانة على الخصوص وهن أدق إحساساً بما يشغل نفسه فى هذه الايام .. ولقد سألته : أحادث علوى بعد تلك الليلة ؟ .. فأخبرنى وهو دهش ان علوى لم يحضر الى الحانة منذ خروجه معى تلك الليلة .

وعبثا حاولت بعد ذلك العثور على علوى .. بحثت عنه فى جميع البارات والكباريهات . . .

وأخيراً قال لى أحد خدم « البار » إنه لمح ذات مرة شخصاً يشبهه جالساً أمام مقهى وصفه لى فى حى السيدة زينب .

فذهبت إلى ذلك المقهى .. فاذا بى أجد علوى قاعداً بمفرده . يتأمل شيئاً لا أتبينه .. فدنوت منه ، ولكنه لم يفطن إلى حتى وضعت يدى على كتفه .. فافاق فى شبه رعدة ونظر إلى وقال :

ـ أنت ؟ ماذا أتى بك إلى هنا ؟ ..

ـ وانت .. ماذا الذى أتى بك إلى هنا ؟ ..

ـ اجلس ..

قالها وهو يهيىء لى كرسياً بجواره ، ونادى « الجرسون » وطلب لى فنجاناً من القهوة .. وأطرق طويلا ، ثم رفع رأسه وقال بصوت كالهمس :

— يجب أن أخبرك ..

— بكل ما يقوم فى نفسك !

— نعم .. لن أخفى عنك شيئاً مما فى نفسى .. إنى أحب . وعندما ألفظ أنا هذه الكلمة ، فاعلم أن أمرا عظيما قد وقع . فانا من أكثر الناس صلة ومعرفة بالنساء ، ومن اكثر الرجال متعة وامتلاكا للحسان والغانيات والجميلات .. ولكن الذى حدث لى قلب كيانى وانبت فى قلبى مشاعر أحسها لأول مرة .. هى فتاة لو رأيتها لعجبت كيف أن مثلها يمكن أن يوحى بالحب .. على الأخص إلى رجل مثلى ، .. نحيلة ضئيلة يضرب لونها إلى الصفرة ، لا تضع الطلاء ، ولا تعرف الإغراء ولا تلبس غير البسيط الضرورى من الثياب .. هى معلمة فى مدرسه إبتدائية للبنات فى هذا الحى .. تسألنى كيف عرفتها أقول لك المصادفة .. كانت فى دار من دور السينما مع بعض تلميذاتها ، ويشاهدن رواية ملونة بالرسوم المتحركة . فلما انتهت الحفلة وخرجت بأطفالها تعرض لها

شاب ثقيل بمغازلة سمجة ، فلم تعرف كيف تحمى نفسها منه ، فتدخلت وأنقذتها ، وأوصلتها إلى مدرستها مصونة موقرة مع تلميذاتها . . فشكرت لى ذلك بصوت لن أنساه ! صوت أثر فى نفسى كما تؤثر أحيانا قطرات الندى فى قطعة الصخر . . صوت لم أسمع من قبل نبرة حنانه ورقته ووداعته حتى ولا بين ملائكة السماء ! . . منذ تلك اللحظة شعرت أنى محتاج إلى هذا الصوت ، كما تحتاج الصحراء إلى ماء المطر . . فكنت أجىء فى كل يوم أترقب موعد خروجها ودخولها المدرسة . . لأقابلها وأقرئها السلام ، زاعما لها أنى من سكان الحى ، وانصرف عنها وقد ملأ صوتها قلبى . . فأعيش على هذا الغذاء ساعات حتى أحس الحاجة إلى صوتها من جديد . . هذا كل عملى الآن . . إنها كل شغلى الشاغل . . بل هى النور الذى أضاء جوانب نفسى وجعلنى أتحسس دهاليزها المعتمة وأعرف ما فيها من خير وشر ، وفضيلة ورذيلة ، وكنوز وثعابين ،

آه .. ليس الفردوس هناك فى السماء .. وليس هنا فى شارع عماد الدين ! . إنه هنا .. فى القلب ! . . وربما كان فيه الجحيم أيضا ! . . لقد عشت أياما على أمل الزواج منها . . لأننى بغير هذا المصباح لا أرى شيئا ، ولا أميز شيئا .. ولا أفرق حتى بين الحسنة والسيئة . ولكن دون هذا الأمل هوة أوسع من فوهة جهنم ! . . لقد تمكنت من إطالة حديثى معها .. فعلمت أنها مخطوبة لابن عم لها مدرس هو الاخر فى مدرسة ثانوية .. ولقد تبينت من حديثها وتفكيرها أضواء من الحياة النظيفة والعواطف النبيلة والأهداف السامية .. كل همها فى الدنيا إخراج نماذج من البشرية الراقية . وهى تتحدث عن خطيبها كمعاون لها فى مهمتها الانسانية . . لقد كنت أحس الضآلة والحقارة وأنا بجوارها أستمع اليها ، كأنى ذبابة قذرة دانية من شراب مطهر أو دمقس مقدس ! . . ماذا ينبغى أن أفعل بعد ذلك ؟ أمامى طريقان . إما الهجوم والعمل على الظفر بها بأي

ثمن ، وقد أنجح .. فهى لا ترتاب فى أمرى ، وتجهل كل شىء عنى ، وقد لمحت من حدثها بعض الاطمئنان إلى ، والثقة بى ، وليس من العسير أن أنمى ذلك فيها إلى حد العطف والميل وربما .. الحب .. وإما أن أنقذها منى ، وأتركها لطريقها المستقيم ، وخطيبها المهذب ، وحياتها النظيفة وهدفها السليم .. إذا دخلت حياتها فقد حطمتها وهدمتها .. فما أنا لها إلا نقمة ! وما ذنب هذه الطاهرة الماضى الباسمة المستقبل ، أن تكتشف ذات صباح وهى بين أترابها وزميلاتها وتلميذاتها ورئيساتها أنها ما تزوجت غير « بلطجى » ! .. صناعته التكسب من اتاوات الغانيات والكباريهات ! وإذا تركتها .. ولم تدخل هى حياتى فقد حطمتنى وهدمتنى . ماذا أصنع ؟ .. إنى لفى حيرة . وإنى لأرتمى كل يوم فى هذا المقهى . بعد مقابلتها ، لأفتح فى نفسى ميدان صراع : هل أقدم ؟ هل أحجم ؟ ..

وأطرق غارقا فى صمت طويل ولم أشأ أنا قطع هذا

الصمت . . فسكت ، وجعلت أداعب بأصابعى اذن فنجان القهوة . . . إلى أن رفع رأسه مرددا :

ـ هل أقدم ؟ هل أحجم ؟ . .

فاكتفيت بأن قلت له :

ـ تلك هى المعركة الكبرى بين الخير والشر ! . . وعليك الآن أن تخوضها ! . .

* * *

مرت الأيام بعد ذلك دون أن أرى علوى ، فقد اختفى من كل مكان . . . وإذا بى أتلقى خطابا من أقاصى الصعيد ، بامضاء « الشيخ عليوه » يخبرنى فيه انه افتتح كتابا من الكتاتيب فى تلك المنطقة النائية التى كان يرد ذكرها على لسانى فى أحاديثى مع « علوى » فى ليالى السمر بالبار . . . وأنه قد انقطع لتربية النشء من أبناء الفلاحين ، وتبصيرهم بالفرق بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة . وأن الموسى عادت إلى حلق شعر رأسه

زهداً . . والعمامة والمسبحة ظهرتا لخدمة التقوى البصيرة ، والورع الحقيق مع العمل المفيد والكدح المجدى، وان المصباح الذى أضاء قلبه يجب أن يظل مرتفعا عن الدنس ولقد تركه لمصيره الطاهر معاهداً نفسه أن يحذو حذوه ، وأن ينهج سيرته . . وأنه يكفيه منه شعاع ينير له على البعد كالنجم السحيق ...

وكانت تلك نهاية المعركة . .

* * *

وختم صاحبي المرح قصته قائلا :

— والآن هأنتذا قد سمعت قصة ذلك الرجل الذى كان يسمى : الشيخ عليش ، وعلوى بك ، والشيخ عليوه . . . فما حكمك عليه ؟ ..

فقلت له وأنا أرشف قهوتى بعد العشاء الشهى الذى قدمه الى :

— فلنترك الحكم عليه لملائكة السماء . . فانه سيصعد اليهم

هذه المرة بملف زاخر ، سيقتضيهم فرزاً دقيقا وحساباطويلا..
قبل أن يصدروا حكمهم بقبوله النهائى أو طرده الدائم من
الفردوس ! . .

لا كرامة لنبيٍّ في وطنه

كانوا فى القريه يطلقون عليه اسم « زنجر » .. ولست أدرى أكان لهذا الأسم صله بمنظره ؟ لقد كان أسود اللون ،، قبيح الصورة ، مخروم الأذن . يرتدى معطفا عسكريا نحاسى الأزرار ، من بقايا الحرب العالمية الأولى ، قد رث عليه وبلى وضاعت أزراره إلا واحداً ربطه بخيط من تيل ، وهو يحمل فى يده هراوة كانت فرعا فى شجرة السنط التى تظل « الكباس » القبلى . . يرفعها ويجرى بها وراء الساخرين به والضاحكين منه . . وما أكثرهم ! ما من أحد كان يأخذه على سبيل الجد . . وما كان هو يحفل بآراء الناس فيه .. كان يكفيه دائما رأيه هو فى نفسه . . كان له أخوة يصغرونه سنا

تزوجوا واستقروا وأنتجوا ذرية تسعى معهم إلى الغيطان وتعود منها بعد الغروب ممسكة بزمام البهائم المحملة بعليقها من الحشائش وأعواد الذرة .. أما هو فكانت فكرة الزواج تثير بالنسبه إليه ضحك القرية وهذرها وعبثها ... من هى تلك التى ترضى أن تتزوج من « زنجر » .

وكان هذا هو السؤال الذى اعتدت أن ألقيه عليه ، منذ أعوام طوله ، كلما ذهبت إلى الريف :

ـــ هل تزوجت يا زنجر ؟ ؟ !

ـــ أبداً

كان يقولها فى شىء من المرارة والثورة .. فكنت ألاحقه :

ـــ وما السبب ؟

ـــ « ما فيش فلوس » ! ..

هذا كان تعليله الوحيد ... ورأيت أخيراً أن أبطل هـــذه الحجة ، فعرضت عليه أن أقوم عنه بكل نفقات عرسه من مهر وفرح وثياب إلخ ... لو ظفر هو

بالعروس . فسر لذلك وحمد وشكر ، ولكن الأيام مرت ولا نتيجة لهذا العرض ولا أثر . . . ولم أعلم ما حدث . ولكنى صرت بعد ذلك كلما مشيت بين الحقول وإلى جانبى « زنجر » أتأمل من أجله كل فلاحة تميس بقدها تحت ثقل الجرة ، كما يميس العود تحت ثقل السنبلة . . فأسائلها :

— يا بنت . . . أتتزوجين الولد « زنجر » ؟ . .

فما أسمع إلا دقة على صدرها وصيحة :

— يا خيبتى ! . .

وتشتد فى السير بخفة هاربة حتى تختفى . . . وإذا زنجر بجوارى يشيعها وهو مجروح ساخط مغتاظ :

— داهية لا ترجعك . . . وانا كنت أرضى ؟ ! . .

ثم يأخذ فى إقناعى بأن كل هؤلاء الفتيات دون ما يستحق ، ودون ما يريد ، ويأخذ بعد ذلك فى حمد الله إذ ضرب على أبصارهن ، فهذا الرفض منهن نعمة ! . . .

ولكنى لا أقتنع ، وأظل أطرح السؤال على طوائف مختلفة من بنات القرية . . . وأهبط فى سلم الجمال درجات ، وأطأطىء الرأس نيابة عنه وأقبل تضحيات ، حتى وصلنا إلى درك لا نزول بعده . . فكل مشوهات القرية ، من الخنفاء والعرجاء والحدباء ، عرضت أمره عليهن . . فما سمعت قط غير تلك الصيحة المنكرة من الأفواه وذلك الدق المستنكر على الصدور . . وتلك العبارة الواحدة من كل الشفاه :

ـــ ضاقت علينا الدنيا . . . ما بقى غير « زنجر » ؟ ! . .

* * *

وصدقت وآمنت أخيراً بصعوبة زواجه . . فهذا رجل نشأ فى القرية أضحوكة ، وشبت فتيات القرية ولا يبصرن منه ولا يعرفن عنه إلا أنه رمز السخرية ، ومناط العبث ومثار الهذر . . . لقد كان فى مجرد تقدمه إلى أسرة من القرية سوء أدب منه فى نظرها . وتعد منه على كرامتها ، وخدش

لسمعتها . . . إذ استقل شأنها خصها دون أهل البلد بهذه المهانة وقلة التقدير . . . هكذا كانت الأسرة تدفعه عنها كما تدفع الفضيحة . . . وبلغ الحال من السوء أن أصبح « زنجر » شخصية تغيظ بها البنت المذنبة إذا أردت لها تأديبا . . . ولم يشذ عن استخدام هذه « الأداة » التأديبية أحد حتى أنا . . . فقد انتهى بى الأمر أن آمنت فى القرية بما يؤمن به الجميع . . . وصرت إذا أردت أن أشتم بنتا مهملة من بنات الخدمة فى البيت أو الحقل أكتفى بقولى :

— والله يا بنت لأزوجك من « زنجر » !

فتطفر دموع الخوف والضراعة من عينيها فى الحال . . . وأدرك أنى قد رفعت عليها بهذه الجملة سوطا يقيم عوجها ويصلح فاسدها . . .

كل هذا و « زنجر » فى ملكوت من نفسه، عالم من رأيه ، وحصن من « حالة معنوية » عجيبة . . . مرتفع

فوق لجج الاستهزاء العام ، لا تعصف برأسه أنواء ، ولا يصل إلى عينيه رذاذ ولا ماء . . لطالما ساءلت نفسى فى أمره ، أهو جمود ؟ أهى بلادة شعور ؟ أم هى صلابة شخصية وقوة إيمان ؟ ! . .

أردت أن أتندر به ذات يوم . فقلت له :

ــ ومن التى ترضى أن تتخذها زوجة لك من بين بنات القرية ؟

فقال بلا تردد :

ــ البنت « سلطانة » .

يا للعجب ! . . . « سلطانة » هذه هى أجمل بنات القرية طراً . هى الزرقاء العينين العسجدية الشعر . . . التى يخشى التقدم اليها أجمل فتيان القريه وأقواهم . . . هى التى يتنافس فيها المتنافسون ، ويتزاحم المتزاحمون ، من بين من فرزت مؤهلاته وبرزت صفاته . . فما تمالكت أن صحت به :

ــ طيب اسكت . . اسكت . .

° ° °

مرت الأيام . . . وعدت مرة أخرى إلى الريف بعد غيبة عنه طويلة . . . فراعنى ما أجد ، وأذهلنى ما رأى . . .

زنجر قد تزوج . .

— تزوج بمن ؟ . .

بفتاة أجمل من سلطانة ! . . .

وعلم زنجر بحضورى ، فجاءنى وكأنه يقول : « هذه المرة تستطيع أن تسألنى السؤال المعهود ؟ » . ولكنى كنت علمت من قبل الجواب . . . فاكتفيت بأن أقرأ على وجهه سطور انتصاره . . بل لقد قرأت ذلك على وجوه أهل القرية أجمعين . . لم يعد « زنجر » فى نظرهم ذلك « الأضحوكة » . . إن الإسم لم يزل حقا لاصقاً به . ولكن قد غسل عنه كل معنى من معانى الهزء والسخرية . .

كيف حدثت المعجزة ؟ . . لم يخبرنى هو . . ولكن الذى قص على شيخ وقور من شيوخ القرية قال :

— حدث من ثلاثة أشهر أن حضرت إلى القرية «ترحيلة» «لنقاوة» الدودة من زراعة القطن وكان يعمل فيها بنات كثيرات من قرى بعيدة . . فيهن جميلات وفيهن رشيقات . . وكان زنجر هو «الخولى» عليهن . . فاذا هو يلمح من بينهن فتاة هى أسطعهن جمالا وأوفرهن سحرا وأكثرهن فتنة . . بل هى حسن لم نر له مثيلا فى قريتنا . . فلزمها فى العمل ، وتودد اليها . . وخفف عنها . . وكان لا يأمرها إلا بمعروف ولا يعاملها إلا برفق ولا يحادثها إلا بلطف . . وتفتحت نفسه لها بيضاء جميلة كما تتفتح زهرة القطن . . وكانت الفتاة طيبة القلب ، فأبصرته «بعين» قلبها ولم تبصره بعين أذنها . . رأت فيه «الانسان» ولم تر فيه «الاضحوكة» . . فهى من قرية بعيدة لا تعلم عنه شيئا . . فلم يقم بينه وبينها سد قديم من تلك الشخصية المبنيه بلبنات الضحكات ، فى بلده ، على مدى الأعوام . . لقد بادلته لطفا بلطف وعندما قال لها مازحا ذات يوم: «تتزوجينى» لم يرعه إلا قولها «نعم» . . فقال لها :

— صحيح ؟

فقالت :

— صحيح ،

— تحلفى على المصحف ؟ .

— أحلف .

وأقسمت انها جادة . . وأنها لا تطمع فى زوج خير منه فطار زنجر فرحا إلى أهله يزف اليهم الخبر . . ولم يصدق أهله هذا الكلام إلا بعد أن سمعوا قبول الفتاة بآذانهم . . . فارتفعت «الزغاريد» فى القرية . . ودفع زنجر المهر لأم العروس . . . وجاءها بحلق فأبوها قد توفى وتزوجت أمها بغيره «وغوايش» فضة وخلخال ومرتبة ولحاف ومسندين ومخدتين وحلة وطشت وفناجين قهوة وبراد شاى وصينية وأربع ملاعق وأربعة أطباق . . الخ الخ . . ثم أعدت العدة ليوم الفرح فأحضروا الجمل وطفق زنجر مع اخوته يزينونه بسعف النخيل والخوص والجريد والشال الأحمر . . . وأتموا صنع الهودج الذى

سيحضرون فيه العروس الفاتنة من بلدها . . . كل ذلك بين غناء أهل زنجر وغبطتهم بفوز هـذا المظلوم . . . وبين نظرات الدهشة والحسرة والندم من بنات القرية اللاتى سخرن من زنجر ، فأظفره الله بمن لا يصلن إلى كعبها ملاحة وطهارة ودماثة . . .

أصغيت إلى كل هذا . . وعلمت سر « المعجزة » . . لقـد جاءه الخير والتقدير ورد الاعتبار من قرية أخرى بعيدة . . هـكذا أنصفه الله . . بالطريقه التى أنصف بها من رضى عنهم من الرسل والأنبياء .

مدرسة المغفلين

هب من فراشه بعد منتصف الليل على طرق الباب ، وقام ليفتح ، وهو كالسكران من حلاوة النوم ، ومشى فى دهليز مسكنه الذى يبيت فيه بمفرده ، مشية غير الواثق من يقظته ، فتح بغير تفكير ، وإذا شاب يدخل صائحا :

— ارحمونى . . ارحمونى . .

ويندفع إلى البهو ، فيضىء أنواره كلها ، ويختار مقعدا ضخما فخما يرتمى فيه ، ويخرج من جيبه ورقة ، طفق يقرأ منها بأعلى صوته :

— ارحمونى . . ارحمونى . .

فأقبل صاحب البيت يجر قدميه ويسأل متثائبا :

ـ ما هى المسألة ؟

ـ المسألة خطيرة جدا ، إنه الحب ، إنه السهاد ، إنه البعاد . . طول الليل وأنا أنظم هذه القصيدة ، لعلها ترق وتحن ، لقد قطعت لها قلبى ، لأضع فى كل كلمة قطعة . . . اجلس واسمع . . .

فلم يجد صاحب الدار بدا من الاذعان ، فالضيف صديق لا يجب إغضابه ، وهو فى عرف الذوق واللياقة مكلف باكرامه وإرضائه ، فجلس مكرها ، يغالب الكرى ويتجلد ، ويصارع النعاس ويتماسك ، ليسمع شعرا ونظما فى الهزيع الأخير من الليل .

ونشر الضيف الورقة فى يده وأنشد :

ارحمونى . . ارحمونى . .

طـار نومى من عيونى

وتنبه صاحب البيت وقال وهو يفرك أجفانه الحمراء :

ـ عيون من الذى طار نومها ؟

ـ عيونى أنا طبعا.

ـ طبعا .

ومضى الضيف فى التلاوة ، حتى قطع فيها شوطا ، فلم يجد لانشاده صـــدى ، ولم يسمع على خـــريدته تعليقـا . . فرفع بصره إلى ذلك الذى يلقى عليـــه أبياته ، وينـــثر عليه آياته ، فوجده يترنح ويتمايل . . لا من الاعجاب . . ولا من الطرب . . طبعا . .

فكف عن القراءة وصاح :

ـ أنا آسف ، يظهر أنك متعب ، خير الأمور أن تقوم . . .

فايقن النائم بالفرج ، ولم ينتظر ، ووثب من مقعده ، كأنه عبد أعتق ، أو سجين أطلق ، ولسانه يلهج بالشكر ، ولكن الضيف استأنف :

ـ نعم ، خير الأمور أن تقوم فتصب على رأسك كمية من الماء البارد ، لتفيق وتنشط وتسمع بقية القصيدة ، لأنها

طويلة جدا .

وهنا لم يطق صاحب البيت صبرا . ولم ير فى ذمته للضيافة حقا . فانفجر يلعن الحب والمحبين ، والشعر والنثر ، وقصائد الغناء والبكاء ، وكل ما على الأرض من نساء .. وترك المكان . وذهب إلى حجرته ، واندس فى فراشه ونام . .

* * *

مرت شهور على تلك الليلة ، وهو لا يعلم من أمر صديقه المتيم شيئا . . ثم ترامت إليه الأخبار بان ذلك الغرام الذى أنشدت فيه القصائد بعد منتصف الليل ، قد جر صاحبه إلى أحرج المآزق ، فالحبيبة معلقة بعنقه كأنها قصيدة من معلقات الكعبة . لا بد من الزواج . تلك صيحتها التى لا تنزل عنها ، وبغيتها التى لا مفر منها . ولكن كيف يتزوجها ، وقد عرف عنها ما عرف ؟ إنها فتاة لعوب ، من أولئك الفتيات المعروفات على شواطىء المرح ، المبرزات فى ملاهى

الغزل . كم داعبت ولاعبت . وفتنت وسحرت . ولو أنطق الله سلك التليفون لجهر بعدد مغازلاتها . ولو تحدثت رمال البلاج وموائد « الأوبرج » ، لما اختلفت على مقدار غمزاتها ونظراتها وبسماتها ولفتاتها . .

ووقف حبيب الأمس وقفة الذائد عن عنقه ، الغيور على اسمه وشرفه . كل شيء إلا الزواج من هذه الفتاة . إن الحب شيء والزوجية شيء آخر . إنه ليس مغفلا حتى يخلط بين مسائل الغزل ومسائل المستقبل . . لا . . لن يتزوجها . على الرغم من جمالها الفاتن ومركز أسرتها البارز . أما هي فقالت بلسانها ولسان من توسط في الأمر إن لعب الفتاة قبل الزواج لا يدل على شيء ، وقد أصبح مألوفا في عصرنا الحاضر . عصر الحرية والنور . فكثير من الزوجات الناجحات شبعن لعبا ومغازلة قبل الزفاف . إنها حجة واهية ، لا يجب أن يتذرع بها رجل جاد . . .

وانتصرت المرأة في النهاية ، كما تعودت دائما أن تنتصر . ووقع الرجل في « الزوجية » كمن يقع في « حفرة » . . لا يدري

كيف لان ورضخ وقال « نعم » ؟ ولايذكر بالضبط كيف ساخت قدمه . . ولكنه أخذ يعلل نفسه ويمنيها ويقنعها بقوله : «مع غيرى ربما صحت المخاوف . . ولكن معى أنا . مع مثلى ! . . وأنا أعرفها أكثر من أمها التى ولدتها ، وهى تعرفنى وتعرف طباعى العنيفة وشكيمتى القوية وغيرتى الشديدة وعينى الساهرة.

* * *

هذا ما كان من أمر الضيف المغرم ، أما ما كان من أمر صاحب البيت ، فهو لايعرف الشعر ولا الحب . وكل ما يعرف أن وحدته فى بيته قد ثقلت عليه . وأن البيت بلا امرأة جسد بلاروح . وأن همه فى منزله أن يخرج من حجرة ليدخل أخرى ، ولسان حاله ينطبق على الأغنية الشعبية القديمة :

« العزوبية » طالت عليه

يا أمى اخطبى لى حلوه وغنية

ولم يكن لديه أم تخطب له . ولم يكن من الضرورى عنده

أن يتشبث بشرط الحلوة الغنية . يكفيه الحل الوسط . إنه رجل مسالم قنوع ... ولكن ، من يبحث له ؟ وهنا تذكر سيدة من صديقات الأسرة.. امرأة نصف وزوجة رجل محترم ، لها علم راسخ بأخبار المجتمع الراقى .. خاطبها بالتليفون ، وأبان لها عن طلبته . فقالت ضاحكة : « أتقبل نصيحتى ؟ الزواج فى عصرنا الحاضر كما يقول المثل السائر : « على عينك ياتاجر » الطريقة المتبعة الآن أن تحضر المجتمعات والحفلات وتختار من تعجبك ، وتسأل عنها .. وها هى الفرصة سانحة . فى الأسبوع المقبل حفلة خيرية فى « الاريزونا » ستلقى فيها كل أنيقات القاهرة ، من سيدات وفتيات . تعال وأنظر .. وأخبرنى هناك وأنا أدلك .. »

* * *

ووافى موعد الحفلة الخيرية . وكان مساء جميلا لمعت فيه عيون النجوم وتألق القمر . فارتدى رداء

السهرة ، وذهب على بركة الله . ولم يمض قليل . حتى غاص فى بحر أضواء السماء والكهرباء والنساء ، وأوغل فى روضة الشجر والبشر . وامتـــدت حوله أيدى الأغصـان وأذرع الحسان . واستقبلته كواعب بائعات الفتنـة فى صورة بائعات للورد . وأحطن به من يمين ومن شمال . إنه حصار الجمال . ورد يبيع وردا . وأزهار تحمل أزهارا . فأخرج من جيبه النقود عن غير وعى ، ونثر وبذر ، ليحصد البسمات والنظرات . ها هى ذى سوق الملاحة والرشاقة والدلال ماذا يأخذ منها ، وماذا يدع ؟ ومن يحب ومن يكره ؟ ومن ينبذ ومن يختار؟. فغشى بصره ، وزاغ نظره . وارتبك وحار ... ثم انتبه على صوت يناديه . فاذا هى السيدة الخبيرة التى سألها هدايته . أقبلت عليه وقادته كالربان الماهر ، فى خضم موائد الأكل ومواكب الحسن . وهمست فى أذنه :

ـــ ألم تعجبك واحدة ؟

فقال على الفور :

ـــ أعجبنى الكل : أحب هـــذه ذات الثوب الوردى وأحب تلك ذات الثوب البرتقالى وأحب الدانية ذات الثوب البنى . وأحب البعيـــدة ذات الثوب الكحلى . وأحب الضاحكة ذات الثوب الفستقى وأحب العابسة ذات الثوب البندقى ، أحب هذه ، وهذه ،وهذه ، وهذه . . .

أحب الجميع . . .

فضحكت وقالت :

ـــ ليس من المعقول أن تتزوج كل الحفلة . يجب أن يقع اختيارك على واحدة بالذات .

ـــ هذه الحفلة « الخيريه » وإن شئت أقولى « سوق النخاسة العصرية » ، تعج ببضاعة تبهر العقل .. ولم أعد أدرى أأنا البائع فى هذه السوق أم المشترى ؛ لقد تهت وضللت تخيرى لى أنت بصائب حكمتك وواسع خبرتك ! ..

فأشارت إلى مجموعة من النساء متلألئة «تزرى بالمجموعة

الشمسية ، وقالت :

ـ الق نظرة على هؤلاء . .

ـ أكلهن للزواج ؟

ـ بالطبع . كل من ترى هنا . . الفتيات يردن أن يتزوجن . والزوجات يردن أن يتطلقن . .

فأرسل نظرة شاملة على تلك النحور العارية ، والصدور المكشوفه ، والبسمات الفاتنة ، والنظرات المفتونة ، وقال فى نفسه : أين ذلك العهد الذى كانت تسمى فيه المرأة « السيدة المصونة والجوهرة المكنونة » ؟ ! ترى ماذا يجب أن تسمى اليوم ؟ . .

وأخذ يفكر فى اسم أو لقب أو وصف يمكن أن ينطبق عليها الآن . . ولكن حبل تفكيره انقطع فجأة . فقد لمح عن بعد صديقه الضيف ، صاحب القصيدة ، يدخل من الباب ، وقد أحاطت به بائعات الورد كالمعتاد . ولمحته فى عين الوقت الست الدليلة الهادية ، فهمست قائلة :

— صاحبك ! ؟ .

— نعم . إنه يدخل وحده . عجبا ! . . أين زوجته إذن ؟ بلغنى أنك كنت احدى الساعيات فى الخير بينهما . . وكنت ممن توسط فى أمر ذاك الزواج .

فقالت السيدة بصوت الجد :

— حقيقة . . شوشو صديقتى ، وكنت أظنها تمشى بعقل بعد زواجها . ولكن ، كلام فى سرك . . أنا لا أحب أن أكون مسئولة عنها الآن . أنا أفهم أن يكون للزوجة بعض الحق فى اللهو . . ولكن على شرط أن تكون فى منتهى الحذر حتى لا يلحظ عليها شىء . . وأن تتصرف بغاية الحرص حتى لا يبدو على سلوكها شك . أما شوشو فلا أدرى ماذا جرى اليوم لعقلها ؟ انها فضلا عن علم الجميع بأن لها حتى الآن أربعة عشاق أو خمسة فى نفس الوقت . . . فهى لا تحاول أن تدارى أمورها ، أو تستر تصرفاتها . تصور أنها فى وضح النهار تنزل من سيارتها أمام دهبية معروفة ومعها حقيبة صغيرة

تحوى « بيجامتها » الحريرية . . وكل هذا تحت سمع السائق وبصره ، وتحت نظر من يمر من المعارف والفضوليين الذين قد يعرفون السيارة وصاحبها . لا . . لا . . شوشو فى الحقيقة متهورة اليوم أكثر من اللازم ، وأنى أرى منها كل ذلك وأقول فى نفسى « ربنا يستر » . . فكل الناس يعرف سيرها الآن . . أمرها شاع ورائحتها فاحت . . .

ـ وزوجها ألم يشم الرائحة ؟

ـ الظاهر أنه مزكوم ، كأكثر الأزواج .

وكان زوج شوشو عندئذ قد تخلص من بائعات الورد ، وسار يفحص بعينيه الجموع ، كأنه يبحث عن أحد . حتى أشرف عليهما . . فلما صار على خطوات منهما لمحهما هو الآخر فأسرع نحوهما وحياهما . وعاتب صديقه صاحب البيت عتابا هادئا يخالطه المزح ، لما لقيه فى بيته من اهمال ، تلك الليلة التى تفجرت فيها شاعريته . . على أنه انتقم ، كما قال ، فلم يدعه إلى حفلة قرانه ولا إلى بيت عروسه . . وهنا التفت إلى السيدة

قائلا بلهجة العجلة واللهفة :

— شوشو . . ألم تلحيها هنا ؟ لقد سألتنى أن أسبقها . . قائلة إنها ستمر ببعض صديقاتها أولا . . وقد رأيت الذهاب لبعض أعمال أخرتنى ، وجئت حاسبا أنى أجدها . . لا شك أن حديث صديقاتها شغلها عن الوقت . . إنه لمن حسن الحظ أن أقابلك هنا الليلة . إنها خير مناسبة أقدم لك فيها شكرى . كاد يمضى نصف عام على زواجى ، الذى توسطت أنت فيه ولو تعلمين كم أنا سعيد ! . . لقد كنت مغفلا يوم ترددت وتمنعت وتخوفت . ألا تذكرين كم جاهدت أنت لاقناعى ؟ الحق كان فى جانبك . شوشو اليوم ملاك . وانى أضحك من نفسى لرأيى السابق فى طيشها . إنك ولا شك قد لاحظت اليوم كم تغيرت وعقلت . الحمد لله ، مخاوفى كانت فى غير محلها . لقد ظلمت المسكينة . وهى فى الحقيقة زوجة طيبة يندر أن يوجد لها مثيل . .

ومضى فى هذا الكلام . . وصديقه « صاحب البيت »

يصغى اليه فاغرا فاه . . لا يصدق ما يسمع . إلى أن تأكد له أن أذنه لم تخدعه . . همس قائلا :

— إنا لله وإنا إليه راجعون !

ولم يلبث هذا الزوج أن جذبته من ذراعه يد أحد المعارف . فاستأذن ومضى معه إلى مائدة عامرة بالأصدقاء وترك صاحبه والسيدة الدليلة الهادية يتبادلان النظرات ، صامتين بلا تعليق . . وأخيرا نطقت السيدة قائلة :

— والله شاطره ! . .

— شاطره ! ؟ وهل هذا مصيرى أنا أيضا ؟ وهل نصيحتك لى ستكون من هذا القبيل ؟

فضحكت وقالت :

— لا . . لا تخف . . ظروفك أنت مختلفة كل الاختلاف ومع ذلك . . ما دمت قد رأيت بعينك وسمعت بأذنك فلا يصح لى أن أغشك . . هل تريد الصراحة ؟ إذن اسمع رأيي : هذا جيلك الجديد وهذا عصرك . خذ الأمور كما

هى ولا تخدع نفسك . وأعلم أن أكثر النساء هنا لكل واحدة منهن على الأقل عشيقان أو ثلاثة . . وان تلك التى يقال إنها نظيفة السمعة ولم يسمع عنها أحد شيئا ، هى التى لها عشيق واحد . . فاذا أردت منى أن أغالطك ، أو أن أشجعك على مغالطة نفسك ، فهذا أمر آخر . . ولكنى أنصحك أن تنظر إلى الواقع اليوم بعين الواقع . . .

وسكتت . . لأن الموسيقى الراقصة دوت فى المكان . . وقام من كل مائدة زوجان . . ودق الطبل ورن النحاس وعوى « السكسوفون » . . فكان لمزيج أصواتها صدى يشبه صراخ الحيوان الجوعان . . ولعبت الأجساد بالأجساد . . واحمرت العيون ، وندت الشفاه ، واتسعت الأحداق . . واضطربت الأفكار فى رأس « طالب الزواج » ماذا يصنع ؟ وماذا يقول ؟ وعلى ماذا يعول ؟ . .

وظل فى اختلاط فكره وحيرة رأيه ما ظلت الرقصة فى اختلاطها ولعبها بأفئدة الراقصين والمشاهدين . . . إلى أن

انتهت الرقصة . وصمتت الموسيقى ، وصفق الحاضرون. وأقبل البعض على البعض يتحادثون . . . فالتفتت السيدة الهادية إلى زميلها الخاطب قائلة :

ـــ لم أتلق جوابك ؟ ماذا قررت ؟

فأطرق لحظة . ثم رفع رأسه وقال :

ـــ أمرنا إلى الله . ابحثي لنا إذن عن واحدة شريفة عفيفة سمعتها طيبة ليس لها غير عشيق واحد ! ! ! .

الشيخ البلبيسي

لم اره قط رؤية العين . . ولـــكنى سمعت به ممن رأوه وعرفوه . . فقد كان لذلك الرجل صيت فى الأقاليم منذ أكثر من ثلث قرن . . كان رجلا فارع الطول ، فيما يقال ، ضخم الجرم ، ذا هيئة تفرض على الناس التبجيل والاحترام . . وكان شديد العناية بثيابه ، لا يرتدى منها إلا ما غلا فى الثمن وزاد فى المهابة . . كان عظيم الهامة ، أشيب اللحية ، طويل المسبحة ، كبير العمامة . .

* * *

روى لى محدثى عنه قائلا :

عرفت الشيخ « البلبيسى » لأول مرة فى دار الباشا المدير .

دخلت عليهم فى تلك « المنظرة » التى كان يجتمع فيها من حين إلى حين جلة علماء المديرية وأكابر أعيانها : فأبصرت « الشيخ » بطلعته الجليلة فى صدر المجلس ، فما شككت فى أنه أعظمهم فضلا وأرفعهم قدرا . . فلما قدمنى اليه المدير ، لم انتظر حتى اعى أسمه ، وانكببت ، لهيبته ، على يده أقبلها . . فسحبها منى برفق وافسح لى مكانا إلى جواره ، وهو يقول بصوته الوقور :

ـــ استغفر الله يابنى ، استغفر الله ! . . . على من اخذت العلم فى الأزهر الشريف ! ؟ . .

فعلت وجهى حمرة الخجل وقلت :

ـــ لم أدرس العلم . . ولكنى رجل موارع من ذوى الاملاك . .

فربت على يدى بكفه قائلا :

ـــ وانعم بالزراعة والزراع ! . من يزرع خيرا يحصد خيرا ، ومن يزرع . . .

وسعل سعالا خافتا غريبا كأنه عواء . . جهد فى كتمه بكمه

ومضى يقول متلطفا :

ـــ كيف اتفق انى لم أرك هنا من قبل ؟

فقلت وأنا القى نظرة على الباشا المدير المتشاغل عنا بضيوفه وهم يتحدثون ، فيما بينهم ، هامسين ، حتى لا يزعجونا ، فيما اعتقدت ، بأصواتهم :

ـــ انى قليل المجىء إلى البندر . ولا اغادر أرضى وعزبتى إلا إذا دعتنى إلى ذلك المصالح أو الضرورات . .

فقال الشيخ وهو يعد بأصابعه المرتجفة حبات مسبحته :

ـــ حسنا فعلت يا بنى . . لقد قالوا فى الأمثال : الأرض التى لا ترى قدم صاحبها لا تفلح . . .

وسعل ذلك السعال الغريب المكتوم وقد وضحت معالمه المشابهة لعواء الكلب . . فأخذتنى رعدة . . وأحس ذلك منى . . فمال على أذنى هامسا :

ـــ هل أزعجك سعالى ؟ . لا تخش شيئا . . هذا أمر يأتى أحيانا ويمر مر الكرام . .

فقلت له باطمئنان :

— بل لا تنزعج فضيلتك . . إنما هو برد عارض من برد هذه الأيام . .

فقال لى بنبرة وقورة هامسا :

— لا . . يابنى . . هذا ليس ببرد . . انى ما تعودت الكذب . إنما هو مرض آخر . .

— ليس خطيرا على كل حال . .

— أرجو أن يبرئنى الله منه . .

وسعل . . أو على الأصح عوى كالكلب . . وهو يسد فمه بكمه حتى لا يبلغ الصوت أسماع الحاضرين . . والقى عليهم نظرات قلقة مضطربة . . وهمس فى أذنى :

— لعل سعالى لم يصل اليهم . أما أنت فمثل إبنى . . ولعلك تكتم عنى . . إنها بلية ، ابتلانى بها الله . . وهو لا يبلو إلا عباده الصالحين . . أسأله تعالى أن ينهى هذه الأزمة على خير حتى أنصرف عن هذا المجلس . .

فأخذتنى به شفقة . . ورأيته يلم أطراف عباءته ، ليسرع بالنهوض ، ولكن السعال أو العواء أدركه . . فلبث فى مكانه يحشو فمه بكمه . . حتى هدأ قليلا . فقلت له :

ـ أما من علاج لهذا . .

ـ العلاج بيد الله . . وأخشى أن يكون قد فات أوانه . . كل ما أرجوه أن لا يكون دائى خطرا على الناس . . كفى ما حدث لذلك الخادم المسكين . .

ـ ماذا حدث ؟ . .

قلتها مرتاعا . . فقال بصوت مرتجف متعب خافت :

ـ اشتدت على الأزمة يوما . وقيل انى كنت أسعل سعالا كعواء ذلك الكلب « المسعور » الذى عضنى . . فلما أراد خادمى إسعافى ومعونتى هبرته بأسنانى وعضضته عضة أدت إلى وفاته . . رحمه الله رحمة واسعة! ورحمنى أنا أيضا وغفر لى . .

وقطع سعاله حديثه . . وجعل يمزق كمه بأسنانه ، حتى لا يخرج الصوت من فمه واضحا . . وجعلت أنا أحاول التزحزح

من مكانى مبتعدا عنه من الخوف . . ولكن احترامى له وعطفى عليه وحرصى على شعوره وخشيتى من لفت الأنظار اليه . . كل هذا سمرنى فى مقعدى . . فتجلدت وقلت له بصوت متهدج :

ـــ انها ولا شك أزمه خفيفة ستمر . .

ولم أتم . . فقد جحظت عيناه . . وتغير وجهه . . وتقلصت عضلاته . . وأرغى فمه وأزبد . . وكشر عن أنيابه ، وانقلب فى لحظة ذلك الشيخ الوقور ، إلى كلب خطر عقور . . وترك كمه وفغر فاه بعواء سافر مرعب . . ومد يديه نحوى كأنها مخالب . . وهم بالهجوم على . . وهنا لم أدر من الفزع الا وأنا أثب نحو الباب وثبة ، صدمتنى بعارضته الخشبية صدمة ، ما برح أثرها باقيا فى جبينى . . وما كدت أجد نفسى فى فناء الدار . . حتى صحت من حلاوة الروح بالخدم والحجاب :

ـــ الحمد لله ! هربت بجلدى . . لكن المصيبة هى مصيبة الباشا المدير وضيوفه . . لقد أكلهم فضيلة الشيخ ونهشهم

وانتهى الأمر ! . .

وأردت أن أدفع بالحجاب إلى داخل « المنظرة » لينقذوا من يمكن انقاذه . . . وإذا بى أرى الباشا المدير وضيوفه ، يتوسطهم « الشيخ » الجليل ، خارجين من البـــاب يتمايلون ، والضحك يكاد يقطعهم تقطيعا . .

* * *

فلما انكشفت لى الحقيقة وأبديت احتجاجى . . قال لى المدير باسما :

ــ ألا تعرف الشيخ البلبيسى » ونوادره ودعاباته ! . . هذا هو الشيخ البلبيسى . . . هل تعرفه الآن ؟

فأشرت الى الصدمة فى جبهتى وقلت مبتسما :

ــ معرفته تركت فى أثرا ! . .

فتقدم نحوى « الشيخ » كما يتقدم الممثل بعد أن مسح عن وجهه طلاء التمثيل . . وقال .

ــ الحمد لله على السلامة ؟ ! .

ان شاء الله قريبا . .

فقاطعته صائحا :

ـ مستحيل . . لايلدغ بل قل . . لا يعض مؤمن . .

فبادر يكمل هو العبارة :

ـ من كلب مرتين . . . هذا صحيح . . ولكن من قال لك أنى سأكون كلبا فى المرة القادمة ؟

ـ اذا قابلتنى فى المرة القادمة فكن كما شئت وشاءت لك براعتك . .

* * *

ولم اقابله بعدها أبدا . . إلى أن مات وذهبت أيامه . . ولم يعد لهذه المجالس و « المنادر » وجود . . وانقرض هذا النوع من الناس . . وانقرض معه نوع من المواهب الطبيعية يتفجر من السليقة الانسانية ، كان لازما لادخال الانس على مجالس ذلك العهد .

ان لكل عصر رجال أنسه . . ولكن عصر « المنادرة »

كان له رجال قلما يجود بمثلهم الزمان . .

لا آسف على شىء أسفى على إنى لم أقابل « الشيخ البلبيسى » مرة أخرى . وإن كنت على ثقة أنه كان سيترك فى أثراً لا يمحى ...

فهرس

صفحة

(١) ليلة الزفاف ١١

(٢) طريد الفردوس ٤٥

(٣) لا كرامة لنبي فى وطنه ٨٥

(٤) مدرسة المغفلين ٩٧

(٥) الشيخ البلبيسى ١١٥

قصص توفيق الحكيم

فى خمس مجموعات

المجموعة الأولى

- وتشمل قصص : ليلة الزفاف، طريد الفردوس، مدرسة
- المغفلين ، لا كرامة لنبى فى وطنه ، الشيخ البلياسى .

المجموعة الثانية

- وتشمل قصص : الدنيا رواية ، نصيب ،
- كليوباترا وماك ، موقف حرج ، ابليس ينتصر .

المجموعة الثالثة

- وتشمل قصص : أنا الموت ، امرأة غلبت
- الشيطان ، أسعد زوجين . وكانت الدنيا ،
- الاختراع العجيب ، وجه الحقيقة ، أرنى الله ،

المجموعة الرابعة

- وتشمل قصص : أعترف القاتل ، الشهيد .
- العاشق المجهول ، فى نخب العصابة ، عاطفة
- أب ، عبقرية وافلاس ، دولة العصافير .

المجموعة الخامسة

- وتشمل قصص : سنة مليون ، مؤتمر الحب ،
- الاسطى عزرائيل ، من ليالى مونمارتر ، موزع
- البريد ، زوجة روميو الثانية ، معجزات وكرامات .

١٠٥٠ / ٦ / ١٩٤٩

DATE DUE
JAFET LIB.
19 JAN 2004
Circulation Dept.
JAFET LIB.
24 OCT 2002
Circulation Dept. 2
JAFET LIB.
2 NOV 2005
Circulation
JAFET LIB.
- 2 FEB 2008
Circulation Dept.
JAFET LIB.
14 JUN 2006
Circulation Dept. 2
JAFET LIB.
18 APR 2007
Circulation
JAFET LIB.
25 JAN 2008
Circulation Dept. 4

الحكيم ،توفيق،
قصص توفيق الحكيم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037789

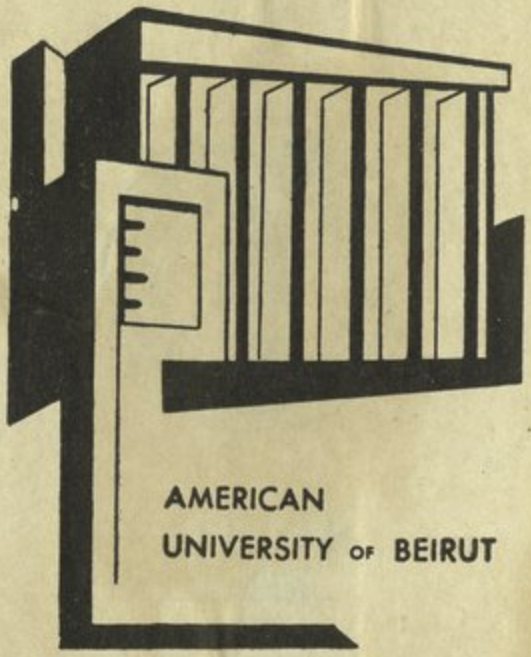

892.73
Ha438kA
v.1